

محمود تيمور

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

رقم التصنيف: ٨٩٩

٥٥٥٥

رقم التسجيل: ١٧٨٦٢٢

نذراء المجهول

مستزيم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالاحكاميات ٩٦٦٣٧٧

المطبعة النموذجية

٦ مكة الشاوي بالخامرة الجديدة

محمود تيمور

[قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية تنويع جميع
الاتساج القصصى باللغة الفصحى لمحمود تيمور بك ،
حرمته جائزة القصة لسنة ١٩٤٧]

وقد أعلن المجمع قراره هذا فى حفل أقامه
يوم ٥ ابريل سنة ١٩٤٧ بدار الجمعية الجغرافية .

وكان المقرر هو حضرة صاحب العزة الاستاذ
محمد فريد أبو حديد بك عضو المجمع وعميد معهد
للترية للعلمين ، فألقى بحثا جاء فيه ما يأتى [

... اختار المجمع اللغوى فى هذا العام من بين المبرزين فى
القصة الأستاذ الكبير محمود بك تيمور ، فأهداه جائزة القصة
إشارة منه إلى هذا المعنى ، ثم اعترافا به للأستاذ الكبير من أثر
محمود فى فن القصة فى أدبنا الحديث .

فقد ألف الأستاذ محمود تيمور بك نحو خمسة وعشرين كتابا
فى القصص ، بعضها مجموعات من قصص قصيرة ، ويبلغ عددها
ثلاث عشرة مجموعة ، وبعضها من قصص تمثيلية ويبلغ عددها عشرين ،
وهي كلها فوق ذلك قصتان طويلتان لم تظهر سوى إحداهما ، وهي

« كليبواترة في خان الخليلي » ، فأكثر جهود الأستاذ تيمور بك متجهة كما يظهر إلى نوعين من القصة : التمثيلية ، والقصة القصيرة .
وقد كانت القصة التمثيلية عنده أسلوباً في الكتابة لا يقصد بها الاتجاه إلى التمثيل على المسارح ، فتمثيلات « تيمور » أقرب إلى أن تكون نوعاً آخر من القصة القصيرة .

والفرق بين النوعين أن التمثيلية تعتمد في تصوير الأشخاص على محاورات أحاديثهم وحركاتهم ، على حين أن القصة تعتمد على الأكثر في تصوير الأشخاص على وصف هيئاتهم ووصف مواقفهم وما يبدو من أعمالهم .

ولم يخرج من تمثيلات « تيمور » على المسرح إلا عدد محدود ، وكان آخرها تمثيلية « حواء الخالدة » التي كان لها أكبر حظ من التوفيق . ولسنا هنا في سبيل التعرض لطريقة « تيمور بك » في فنه ، ولا للتحدث تفصيلاً عن مذهبه في القصة . وحسبنا أن نشير إلى أنه في كل آثاره يتجه نحو إبراز الفكرة الواحدة يعرضها في إطار محدود ، ومن ثم يمكن أن نقول : إن فن القصة القصيرة وما يتصل بها من المسرحيات القصيرة هو الجانب الذي خص به فنه إلى الآن . فهو في أدبنا الحديث يشبه « تشيكوف » و « مكسيم جوركي » في أدب الروس ، و « موباسان » في الأدب الفرنسي .

ولعل هذا الشبه لم يكن عفواً ، فقد كتب الأستاذ « تيمور » في مقدمة مجموعته القصصية « فرعون الصغير » متحدثاً عن « موباسان » قال : « وتابعت قراءتي إياه في شغف عظيم ، واتسعت مطالعاتي فيما بعد في القصص الأوربي وتشعبت ، ولكنني حتى اليوم ما زلت محتفظاً لموباسان بالمكان الأول من نفسي » . . .

ثم قال : « وانتقلت بعد ذلك إلى القصص الروسي ، وقرأت « لتشيكوف » و « ثور جنيف » ومن ماثلهما ، فرأيت تأثير « موباسان » واضحاً في بعض إنتاجهم ،

ولا يملك المتتبع لآثار « تيمور » إلا أن يرى الفرق واضحاً بين آثاره الأولى وآثاره الأخيرة .

ولعل مجموعة قصصه « فرعون الصغير » هي التي تمثل لنا روح فنه في العصر الأول ، وهو يسير فيها — على عادته — يرسم الأشخاص في براعة حتى يكاد القارىء يلمح فيهم بعض من عرف من جيرانه ، ولكن حماسة الشباب تبدو واضحة في أسلوبه : ففيه يعلو صوته وتشتد حركته حتى لقد تبلغ ما يشبه العنف ، ثم هو يعمد أحياناً إلى شيء من المفاجأة ، وقد يظهر ما ينم عن الحق أو الأحكام الخلقية

ولكن آثاره الأخيرة تتم عن تغير محسوس في أسلوب التعبير ، فهو يرسم الأشخاص كما اعتاد أن يرسمهم في براعة ، ولكنه يتحدث

هادئاً مترقفاً منخفض الصوت رقيق الحركة ، تحس في كل عباراته
أن قلبه مملوء عطفاً على الإنسان .

وإنا نستطيع أن نقول في ثقة إنه قد بلغ في بعض قصصه
الآخيرة مرتبة عالية حق لنا أن نفاخر بها . فهو في قصته « ولي الله »
من مجموعة « شفاه غليظة » يصور أسمى جانب من القلب الإنساني .
عندما يصور لنا أن هناك ما هو أعلى من عدالة القوانين . وفي قصة
« كلب أسعد بك » يرسم لنا في وداعة صورة اجتماع السمو والإسفاف
في الحطام البشري وفي قصة « البديل » يصور لنا كيف تنطوى
أسمى العواطف في قلب الإنسان وإن كان في عرف المجتمع الجامد
موضعا للزراية . ففي مثل هذه القصص يظهر فن « تيمور » رائعاً
إذا قيس بأعلى آثار القصص في الأدب العالمي .

وإذا كان الأستاذ « تيمور بك » قد اتجه في بعض قصصه نحو
مجاراته الكتابة باللغة الدارجة ، فالظاهر أنه قد وجد اللغة العربية
الصحيحة أولى بفنه ، فنحنا أخيراً في أسلوبه منحى يجمع الصحة
والسلامة والسهولة . ولعل هذا اعتراف منه بما تنتظر اللغة العربية
من فنه .

فإذا أردنا أن نجعل ما يمتاز به طريقة الأستاذ « تيمور بك »
في قصصه ، كان لنا أن نقول على طريقة القدماء في وصف
الأدباء :

إنه يمتاز بثلاث :
أنه يرسم الأشخاص حتى إنك لتحس أنفاسهم وتلمح الحياة في
سهولة حركاتهم .

وأنه يكتب في لغة سلسة لا تحجب شيئاً من معانيه .
وأن فنه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية لا تحس معه حرارة
في وصف ، حتى ليكاد يحبب إليك الضعف الإنساني .
إن « تيمور » إذ يتحدث عن الناس في ضعفهم يتحدث عاطفاً
كأنما هو يحبهم لما فيهم من العيوب ، ويصور سموهم معجبا بغير أن
يجعل الإعجاب يخدعه عن الحب .
ولهذا نعتقد أنه أروع ما يكون وأحلى إذا تحدث عن الناس
كما يراهم في لمحات قصيرة كأنه عابر طريق .
وهو في ذلك يخدم الأدب من ناحيتين :
الأولى : أنه يشير إلى مثله الأعلى الإنساني ، ويصوره لنا في
صوره البارة .

والثانية : أنه يعرفنا بالجانب الذي يعرفه من مجتمعنا المصري ،
فهو معلم من معلمى هذا الجيل ، وهو عامل من العوامل القوية على
تعريفنا بأنفسنا .

وإذا كان القصص الرمزي والأسطوري فنه وفنانه ، وإذا كان
للقصص الطويل فنه وفنانه ، وإذا كان للنقد الثائر فنه وفنانه ؛

نجان فن « تيمور » هو القصصى القصير الواقعى الإنسانى المماوء
محبة للإنسان .

ولانه ليشرفنى أن أنوب عن المجمع اللغوى فى توجيه الشاء إليه ،
راجياً له اطراد التوفيق والسمو ، سائل الله أن يمدّه بروح من عنده ،
حتى تتكون للعربية الشريفة ثروة من ثمار إنتاجه وإنتاج أنداده
من المبرزين فى فن القصة الذين تعز بهم العروبة ؟

محمد فريد أبو صدير

سافرتُ إلى «لُبنان» ، سنة ١٩٠٨ ، لأروِّحَ عن نفسي ،
 وأنعمَ بفترة هدوء وبعُد عن صَخَبِ الحياة ، و«لبنان» وقتئذٍ
 تحت السيادة التركية . وقصدت إلى «بعتاب»^(١) وهي قرية صغيرة
 لا تحوى سوى ثلاثة منازل ، وفندق متواضع لا يسع أكثرَ من
 ثمانية أشخاص . وكانت المنطَقَةُ في مَغْزِلِ ناء ، فأقرب بلدة
 إليها تبعد منها مَسِيرَ ساعتين على البغال .

استقرتُ في «فندق الأمان» ، لصاحبه «الشيخ عاد
 أبو المجد» ، ووجدت المكانَ وَفَّقَ هواي : هدوء شامل ،
 وهواء جافٌ بارد يبعث في الجسم النشاط ، ومعيشة ساذجة
 قريبة إلى الفطرة . فالفندق أشبه بمنزل ريفيٍّ ، غرس أمامه
 «الشيخ عاد» بعضاً من أشجار الصَّنَوْبَرِ والتفاح والعنب ،
 وأصنافاً من الأزاهر ، بطريقة غير منسقة ، ولكنها مقبولة .

(١) الأسماء الواردة في هذه الرواية مصنوعة .

وكانت الجبال الشاخنة تحيط بتلك البقعة الوادعة ، كأنها
حراس يخفرونها . والوادي البعيد منبسط أمام الفندق بزروعه
المختلفة الألوان . وعلى سفح الجبل قطعان الماشية ترعى الحشائش
الجافة التي تنبت في جُرأة عجيبة بين الصخور .

وكنّا نُسِيح لأنفسنا الظهور في الفندق ، وعلى المائدة نفسها ،
بالملابس التي تروقنا . فيرتدى كل واحد منا ملابسه الوطنية المريحة ،
وقد شجعنا على ذلك « الشيخ عاد » نفسه ، إذ تعود أن يظهر أمامنا
بملابسه الشرقية البديعة : القفاطين الوطنية ذات الألوان الزاهية ،
والجُبَب الحريرية الفضفاضة الموشَّية بالقصَب ، يغدو فيها
ويَرُوح بِمِشِيته المتزنة الهادئة . ووجهه الصَّبِيح مشرق دائم
الابتسام ، فتخاله سلطاناً من سلاطين ألف ليلة . . .

والرجل حُلُو الحديث ، غاية في السماحة وكرم الضيافة . وقد
تَعَجَّب لتلك القيمة الزهيدة التي يرضى بها أجر البيت والطعام ،
مع أنه يقدم لك من الماء كل ما يساوى أضعافها . ولكنك إذا
علمت أنه يملك قطعاناً من الغنم ، وأرضاً شاسعة للزراعة ،
وبساتين مزدهرة بالكروم وشتلف الناكهة ، زال عجبك ،
وأيقنت أن كرم الرجل سجيّة فيه متأصلة ، ساعده هايتها

فناه . وما إدارة الفندق في الحق إلا هوى نفسى لا يخلو
من شذوذ .

واعتدنا نحن سكان الفندق ، أن نجتمع وهو معنا على
مائدة واحدة ، والمائدة مستديرة تضم على سطحها العريض ما لذ
وطاب من ألوان المشهيات التي اشتهرت بها الموائد اللبنانية .
فإذا جاء الخدم بصنف من الطعام ، وضعوه وسط المائدة ،
وتولى الشيخ توزيعه علينا . وكثيراً ما استغفينا عن الملاحق ،
فاستبدلنا بها أصابعنا ، نترك لها حرية العمل ، كما كان يفعل آباؤنا
وأجدادنا منذ القدم . وكأن سداجة الحياة التي تحيط بنا ، أوحى
إلينا ذلك ، فجعلتنا نرى بتلك القيود البغيضة التي فرضتها علينا
مدينتنا الحاضرة . وفي أثناء الطعام ، يامرنا « الشيخ عاد »
بحديثه الطلى ، ويقص علينا قصصه الطريفة في طبخة عذبة
مشبعة بحنان الأبوة . أما نحن فكلنا نصغى لمحلقين في وجهه ،
يغمرنا سحر عجيب ، فكأننا انقلبنا أطفالاً صغاراً يُسقطون
إلى ما يُروى لهم من بدائع الأساطير !

ومن غريب ما علمته من شأن « الشيخ عاد » أنه على علم
بوسائل التطبيب ، يمارسها على طريقته الخاصة ، باستخدام

الأعشاب وبعض العقاقير الحديثة . وقد شهدتُ بعضَ المرضى
الفقراء من أهل النواحي القريبة ، يَقدِّمُون إليهِ ، يستشفُّونَ
على يديه . فما يردُّ أحداً منهم ، بل يزودهم فوق فحْصه عن عِلَّتِهِم
بالدواء من صيدليَّتهِ المنزلية .

وكنا في ذلك الوقت ستةَ أشخاص ، غير « الشيخ عاد »
وخدم الفندق . ومن الطريف أن تضمُّ أسرُنا هذه سيدةً
إنجليزية ، قيل : إنها مستشرقة ، وقيل : إنها متخصصة في العلوم
الطبيعية ، جاءت « لُبنان » تدرُس طبيعة أرضه ، ونباته
وحيوانه . . . هي في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، هادئةٌ
القَسِمَات ، ما تزال نَضْرَةُ الشباب تتخيل على وجهها الجميل .
وألقيتُ مرةً ، في الحديقة ، « حبيب » الخادم ، طروباً
في وقْفَتِهِ ، يرُشُّ الزرع ويغني . فقلت له وأنا أداعب
مُبْنَحَتِي وأبتسم :

« ما رأيك في صاحبك الإنجليزية ؟ »

فدق في لحظةً ، ثم اندفع يقهقه . وأخيراً قال لي :

« ما لك وما لها ؟ اترُكها وشأنها ، وإلا فالعاقبة وخيمة ! »

ثم التفت حوله في حَذَر ، ودنا مني ، وهمس في أذني :

« ألسن ترهبُ الجواسيس ؟ »

فدَهَشْتُ ، وتركت «حبيب» وقد اشتدَّ اهتمامي بهذه السيدة .
وكان قد مضى على بضعة أيام في الفندق ، تعرفتُ في أثناءها
بجميع الزَّلاء ، إلا أني لم أهتم بغير هذه الإنجليزية وبرجل
سوريٍّ مترهلٍّ الجسم ، له رقبة مجمَّدة ناحلة كرقبة النَّسْر
المُحْرَّم ، اسمه «كنعان» ، يدَّعي أنه أستاذ للتاريخ في دار الفنون
«أستانبول» . . . أراه دائماً في الحديقة ، حيث يفترش العُشبَ
الأخضر ، ويتوسد حُزْماً من الهشيم ، ويمضي يدخن «النارجيلة»
في اطمئنان . وكثيراً ما تفاضيتُ عن مبالغاته وأكاذيبه يُنمقُ
سردھا تنميقاً يُكسبها مظهر الحقيقة .

أما السيدة الإنجليزية «مس إيفانس» فقليلة الكلام ، مُحببة
للحُرَّة ، لا تبادِلُنا في فترة الأكل إلا بضع كلمات بلغة بين
الفصحى والعامية ، تنطقها في شيء من الصعوبة . ولكنها
تُنصِتُ لحديثنا أيَّ إنصات ، ولا سيما إذا تحدث «الشيخ عاد» ،
فأيقنتُ أنها تفهم العربية جيداً ، بيد أنها لا تحسن التلفُّظَ
بها في يُسر .

ولاحظت أنها تخرج من الفندق كثيراً ، وتتغيَّب طويلاً
وربما قضت النهار كله في الخارج ، لا تعود إلا بعد مغرب الشمس
فسألتُ «الشيخ عاد» :

« أين تكون هذه السيدة حين تخبى ؟ »

فقال لى وهو يبتسم ابتسامته الهادئة :

« ربما كانت تَدْرُس طبيعة الجبال ! »

وكانت إذا آثَرَتِ المُسْكُثَ فى الفندق ، جلستْ على
مقعد مُرِيح فى طرف الحديقة البعيد ، وفى يدها كتاب تطالع فيه .
وكثيراً ما رأيتها تقضى الساعات الطوال على مقعدها ،
تنطوى نظراتها على عزم ونشاط وإرادة ، تخالطها وداعة مُحَبِّبَة .
والكتاب ملقى بجوارها لا تنظر فيه ، وهى تحديق بعينها الزرقاوين
الحالمتين فى الوادى البعيد الممتد تحت قدميها ، أو فى الجبال
الشاخنة المحيطة بها ، وقد أشرق وجهها بنور عجيب ، وراحة
نفسية شاملة .

ومرة كنتُ أتنزه فى الحديقة ، تحت ظلال الصنوبر ،
فرايت « مس إيقانس » قاصدة إلى ركنها البعيد ، متأبطة بضع
صحف ، وورقة كبيرة مُبَطَّنة بالنسيج ، ملفوفة على شكل
الأسطوانة ، فاشككتُ أنها « خريطة » من « الخرائط » .
فوجدتُ تجذب إليها مقعدها الطويل ، فرايت نفسى قد اندفعت

نحوها . . . ولما دنوت منها سلبت عليها منحياً ، وقلت لها
الإنجليزية :

« أستطيع أن أساعدك ياسيدتى فى نقل هذا الكرسي ؟ »
فابتسمت فى لطف ، وقالت :

« أشكر لك جداً ، ياسيدى . لا موجبَ مطلقاً لأن
شعبَ نفسك ! »

ولكنى أخذتُ المقعدَ منها ، وحملته وأنا أبتسم . وسرت
إياها ، ثم قلت :

أتعجبك هذه البقعة ؟

— إنها من أجمل المناطق التى رآيتها فى أسفارى !

— والفندق . . . أتجدين فيه راحتك ؟

— كل ما هو فطرى ساذج أجد فيه راحتي المنشودة . . .

وأنت ، أمسروژ من إقامتك هنا ؟

— كل السرور !

— وهل تمكث طويلاً ؟

بضعة أسابيع . . . وأنت ؟

— قد أمكث حتى يغلق الفندق أبوابه... إن لي مهمة
أريد قضاءها ، ولا أدري كم تتطلب من الوقت !
وسقطت من يدها عفواً حزمة الصحف ، فأنحيت عليها ،
وجمعتها لها ، فإذا بها من الصحف العربية . فنظرت إليها مستطلعا ،
فابتسمت وقالت :

لي شغف بلغتم ، وقد استطعت بعد دراسة بضعة أشهر
أن أقرأها ...

— وكيف تجدينها ؟

— صعبة ، ولكنها موسيقية ساحرة !

وابتسمت ، فابتسمت أنا أيضاً .

وكنا قد وصلنا إلى ركنها المختار ، فأنزلت الكرسي ، وأعددت
لها ، وأحسست رغبة تدفعني لأن أطيل الحديث معها . ولكني
خشيت أن أعكر عليها صفو وحدتها ، فأنحيت أمامها أحياها .
وفيا أنا عائد أدراجي وجدتها تبسط الورقة المبطنة بالنسيج أمامها ،
فاسترقت النظر إليها ، فإذا بها « خريطة » لبعض الجبال ،
عليها بعض العلامات بألوان مختلفة . ورأيت « مس إيقانس »
قد انحنت عليها تشفق جصها وتدرس خططها بانتباه ...

وانقضى يومان لم أر فيهما «مس إيفانس» إلا «لِسَامَا» ولم
تسّح لي الفرصة أن أبادها الحديث . وفي اليوم الثالث لقيتها
في الحديقة ، وهي تجرُّ مقعدها الطويل ، ذاهبةً به إلى ركنها
المنعزل المشرف على الوادي . فأسرعتُ إليها ، ونُبتتُ عنها في
حمل المقعد ، فنظرتُ إلى شاكِرة ، فقلت لها :
لم تشاركِنا في الطعام طَوَالَ يومين . أرجو ألا يكون
بك بأس ...

— أشكر لك . لقد كنتُ في نزهة جبلية !

— وحدك ؟

— أجل ، وحدي ، ولكنني قد أعتمد في بعض الأحيان على
إرشاد دليل . إنني مغرمة بمثل هذه النزهة الفردية !
وسرنا وقتاً صامتَيْن ، وأنا شديد الرغبة في متابعة حديثها
معي ، لعلّي أكشف شيئاً من غوامض أسرارها .
... ولما وصلنا إلى مكانها المختار ، بسطتُ لها مقعدها .
فقالَت لي وهي تنهّياً للجلوس :

« ألا تظنّ أنّ في العزلة واجتناب المجتمع منجاةً من
شُرور كثيرة ؟ »

فَسَرَرْتُ مِنْ سُؤَالِهَا ، إِذْ تَلَيَّنْتُ فِيهِ الرِّغْبَةَ فِي مَجَازِبَتِي
أَطْرَافِ الْحَدِيثِ . فَقُلْتُ :
نعم . لا بأس بالعزلة الموقَّتة ، يَفْزَعُ إِلَيْهَا المرءُ بين
حين وحين .

— والعزلة الدائمة ؟

— إنها تَبْتَلُّ يَاسِيدِي ، وَالتَّبْتُ لَا يَطَاقُ !

وَجَلَسْتُ عَلَى الْمَقْعَدِ مَتَمَدِّدَةً ، فَظَهَرَتْ مَعَالِمُ جَسْمِهَا الْفَاتِنِ .
وَحَدَقْتُ فِي السَّمَاءِ بَعَيْنِيهَا الصَّافِيَّتِي الرَّرْقَةَ ، اللَّتَيْنِ تَكْشِفَانِ عَنْ
عِرَاقَةٍ مَنُوبَتٍ ، وَسَلَامَةٍ قَلْبٍ . وَقَالَتْ :

« إِنْ التَّبْتُ لَا يُرَوِّضُ نَفْسَنَا ، فَتَنْقَشِعْ عَنْهَا غِشَاوُهَا ،
وَمِنْهُمْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى الْوُجُودَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ! »

فَأَسْنَدْتُ ظَهْرِي إِلَى سَاقِ صَنْوَبَرَةٍ عَتِيقَةٍ ، وَعَقَدْتُ
بِأَعْدَى بَصْدَرِي . وَقُلْتُ :

« وَمَاذَا يَهْمُنِي مِنْ مَعْرِفَةِ هَذَا الْوُجُودِ ؟ حَسْبِيَ أَنِّي
أَعِيشُ فِيهِ ! »

فَوَازَتْ إِلَيَّ ، وَقَالَتْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِهْتِيَاجِ :

إذا فهمنا الوجودَ على حقيقته ، اتصلنا بالسعادة الدائمة ؟
— إن السعادة ياسيدتى جولنا ، غيرُ بعيدة المنال منا ،
نظّم هذا الطريقُ الوعرُ ؟

— إن السعادة التى تطلبها أنت وغيرك من طلاب الدنيا ،
هى سعادةٌ رخيصةٌ نافهة !

— صدّقنى ، ياسيدتى ، ليس فى الكونِ إلا سعادةٌ واحدة !
فقاطعتنى ، غيرَ مَغْنِيَةٍ يا جابتى ، وقالت :

« لقد كنتُ مثلكم ، أسعى للاستمتاع بتلك الزخارف
البراقة ، حتى تكشّفت لى المجتمعُ عن حقيقته ، وبان لى زيفُها
وبهتانُها . لقد وثقتُ بدنياكم هذه ، فأودعْتُها أعزَّ ما أملك ،
أودعْتُها قلبى ، ولكنها رَدَّتْ لى هذا القلبَ مطعوناً
إنى أكره دنياكم أكرهها ! »

وأخفضتُ رأسها بين يديها ، ثم إذا هى تبكى . فوقفتُ أمامها
حارّاً جَزِيعاً ، وقد تَوَزَّعَنى الألم . . . وسرُعاناً ما أخذتُ تهْدِئُ
من رَوْعها ، فكففتُ عبرتها ، وهى تقول :

« إنى آسفة . . . آسفة جداً على ما يدّرَ منى ! »

فقلتُ متلثماً :

لا موجب للأسف مطلقاً... إنما... أأكونُ قد أسأتُ
إليكِ على غير قصد؟
— كلا... كلا !

وابتسمتُ ، فبهرتني ابتسامتها : لقد تجمعتُ فيها روعةُ
الاحزان في أنبل معانيها !... فوقفتُ فترةً صامتاً أحرق فيها ، ثم
أقبلت عليها في تمهل ، وانحنيتُ على يدها ، فقبلتها قبلةً رفيقةً ،
بشئها ما يَكُنُّه لها قلبي من إجلال...
وتركتُ المكانَ على الأثر .

قضيتُ اليومَ بأكمله ، أفكر في ما وقع لي مع « مس إيثانس »
وأنا شديد التألم لحالتها ، إذ وضح لي أنها تنوءُ بحزن دفين ،
وتتغشَّرُ بخيبة في آمالها ، ولما نزل في اكتمال الشباب .
وانصرم اليوم التالي ، فلم أجسر على التحدث إليها ، واقتصرتُ
على تمسُّح يدي ، أو الإيماء إليها برأسي ، فكانت تردُّ التحية
بابتسامة حلوة .

وفي اليوم الثالث أطلتُ إقامتي في الحديقة عامداً ، فلما رأيتها
مقيلةً ، ذهبتُ إليها وحيثُها ، ثم قلت :

إن الجوَّ اليوم حارٌّ . . .

— أليس هذا عجيباً مع أننا على ارتفاع ألفي متر ؟

وصمتت لحظة ، ثم قالت :

لقد بحثتُ عنك أمس . . .

— تقصدينني ؟

فابتسمت ، وقالت :

نعم ، أنت !

واتجهتُ نحو مقعدها الطويل ، وأسرعتُ إليه وحملته .

وصرت وإياها في الطريق الضيق الملتوى ، المظلل بشجر الجوز ،

المنحني إلى ركنها المعهود . وأنا مُرهفٌ سمعي ، أنتظر حديثها

بصبرٍ ذاهب . ولكنها لم تتكلم ، فظَللتُ صامتاً . .

ولما وصلنا ، جعلتُ أهْيُّ لها المقعد ، تقدمت نحوي ،

وأخذتُ يدي ، وقالت في لهجة مؤثِّرة :

« فلنكن صديقين ! »

فقلت متحمساً :

« سيدي . . . »

واحتبس القولُ في فمي ، فلم أزدُ حرفاً . . . ولبثنا صامتَيْن

وقتاً ، وقد تمددت « مس إيفانس » على المقعد ، وانصرفتُ

تنظرُ إلى السماء . وجلستُ أنا على كُومة من الهشيم بجوارها .
وبعد حين سمعتها تتكلم ، وهي ما تزال إلى السماء ناظرة :
« ولكن لا تنسَ يا صاحبي أمراً واحداً . . . »

فقلت بلهفة :

وما هو ؟

— أننى امرأةٌ بلا قلب !

ففضيت أرنؤ إليها حائراً ، ثم تناولتُ يدها فى سكون .
وجعلت ألاطفها . وقلت ، وأنا أيتسم ابتسامةً عليها منسحة الخيبة :
ولكنها مفعمةٌ بالإخلاص :

ثقي . أننى سأحترمُ لك هذا الشعور . . . اعتمدى على
صداقتى !

— شكراً . . .

وأسبلتُ جفنيها ، كأنها تستدق النعاس . ومكثتُ أنعم
النظر فى وجهها الوسيم ، الصافى البشرة ، وأنا أناجى نفسى :
ماذا تخفى هذه الصفحةُ الهادئةُ تحتها من تيارات عاصفة
جارية ؟ . . .

ثم نكسنتُ رأسى ، وجعلتُ أنبشُ الأرضَ بعود يابس .

ووقع نظري على كتاب « مس إيقانس » ، ملقى بجانب
مقعدهما ، ولم أكن قد انتهت لوجوده . فتناولته ، فإذا به يبحث في
الفلسفة الصوفية . وطفقت أقلب صفحاته ، ثم استهواني
بحث من أبحاثه ، فأنطلقت أقرؤه . وما كدت أنتهى منه ، حتى
ابتدرتني « مس إيقانس » تقول :

إنه كتاب لا يوافق أميالك !

— ولكن موضوعه طريف شائق . . .

— أتراه كذلك حقا ؟

— إنه يضطر القارئ إلى التفكير في مسائل قلما تسح
لفكره .

ثم صمت فترة ، وأنا أعبث بالعود في يدي . وتابعت قولي :
« إننا في الواقع لا يمكننا أن نصل إلى فهم هذا الوجود
بالأقيسة المادية وحدها ، فيجب أن نتجرد عما هو عالق بنا
من . . . »

فراحت « مس إيقانس » تضحك . . . فقلت على الأثر :

أتظنينني غير مخلص في قولي ؟

— أرجو أن تكون مخلصاً !

فابتسمتُ ، وقلت :

إن الصوفية لتستهويني حقاً ، ولا سيما إذا أخذتها عن
أساتذة مثلك !

— هذا غيرُ كافٍ ، ياسيدي . . . إن الصوفية تتطلب
فداءً جسيماً . وكبير على النفس أن ترضى بهذا الفداء الجسيم من
تلقاء ذاتها .

— ولكن . . .

فتابعتُ قولها :

« قد تعترضُ المرءَ في تاريخ حياته حادثة ، حادثةٌ واحدة ،
تحوّلُ خطة سيره ، وتخلّق به في جوٍّ جديدٍ يفسّره على تغيير
نفسيته . . . ومن ثم يتهيأ لقبول الحقائق الصوفية بلا مكابرة
ولا عناد . »

وطرق أسمعنا حفيفاً فيما وراءنا من الأغصان . فالتفتنا معاً ،
فإذا « حبيب » الخادم يتقدم من « مس إيثاناس » ويقول لها :

لقد حضر الدليل ، فهل تأذنين بمقابلته ؟

— قليات !

وغاب « حبيب » هنيئاً ، ثم عاد ومعه رجل منبسط القامة

عريض الجوانب ، مكشّز العَصَلات ، له شارب غليظ ، كأنه
مصنوع من الآبنوس ، ورقبة كأنها الجذع العتيق . . . ينظر
إلينا نظراتٍ حادّة ، كأنه يزدرينا !

واقترَب الرجلُ من « مس إيقانس » ، وحياها ، فأحسنتُ
لِقائه ، ثم التفتتُ نحوى ، وقالت وهى تتلطّف فى بَسَمَتِها :
« أقدم لك دليلي الذي أعتمد عليه فى ارتياد هذه المنطقة » .
ودنا الرجل منى ، وصافحنى فى شيء من التحفُّظ ، وقال
بصوت خِشِن ، وهو يفتل شاربَه ، أوبالاً حرى يداعبه مزهُواً :
« محسوبك مجاعص » ، ابن الجبل . . . أعرف هذه الجهة
ومخابئها وطرقاتها كما أعرف أصابع يدي . . . يمكنى — صيفاً
وشتاء — أن أسرى فى الليل كما أسير فى النهار ، لا تعرّفنى
ظلمة ، ولا رياح ، ولا لصوص ، ولا ضواري ، ولا . . .
وخشيتُ أن تمتد ثرثرته ، فسعلتُ مقاطعاً إياه . وقلت :
« تشرفنا يا سيد مجاعص . . . ! »

والتفتتُ إلى « مس إيقانس » فوجدتها تضحك فى صوت
مكتوم ، وقالت لى :

« إنه كثير الفخر بنفسه ، ومظهره يدلّ على القسوة ، ولكنه

في الحق طيبُ القلب . . . وعلى كل حال فهو رجل قد يُفيدني
في رحلتي . . .
— أيَّ رحلة؟

— رحلة سأقوم بها في هذه المنطقة . . . لكشف أثر ثمين .
— أثر ثمين ! . . . وهل تتغيبين طويلاً؟

— لا أدري . . . ربما تغيبُ أياماً معدودة . . . وربما . . .
ثم صمتت وهي تبسم ابتسامة غامضة فيها شيء من الاستسلام
للأقدار . فقلت لها :

ومن تصحبين؟

— هذا المجاعص !

— وحده؟

— نعم !

فحملتُ فيها مدهوشاً ، فأتمتُ هي كلامها قائلة :
« إن المخاطر تستهويني . . . وكلما عظُمتُ أحسستُ رغبتي
قد اشتدت في التغلب عليها » .

وانبعث « مجاعص » يحدث « مس إيثانس » في شأن البغال
التي يريد انتقاءها للرحلة . وأفاض في الحديث . فإذا به يلقي

محاضرة في منافع البغل ، وما حبته الطبيعة من قوة بنية ،
واستعداد لتحمل المشاق ، ومهارة في اختراق شعاب الجبال
وتسلق صخورها : ثم انعطف بعد فراغه من ذلك إلى تقسيم
البغال وفق ألوانها : فهناك البغل الأغرّ ، والأصهب ، والأدهم .
فالأول عنيد حرّون ، والثاني طائش ولكنّه لا يخلو من جبن ،
والثالث . . .

وما إن وصل في حديثه إلى هذا الثالث ، حتى رأيت
« مس إيفانس » قد قامت وقالت له :

إني واثقة بمخبرتك ، فانتسّق لي ما يصلح لرحلتنا منها ،
وأخبرني بالثمن . ولاتنس الغرارات والخيام . . . أتريد قائمة
مفصلة بما أطلب ؟

— ليست لي بها حاجة . . . إن القائمة في رأسي ، لم
يُنْجِب «لبنان» رجلاً أوسع مني خبرة ، ولا أقوى مني ذاكرة ،
فاطمثني من هذه الناحية . . . ألم أحدثك بما وقع لي مع السائح
الأمريكي «مستر استانلي» ؟

فبادرت «مس إيفانس» بالإجابة ، قالت :

نعم ، لقد سبق أن حدثتني في هذا . . . والآن ، إلى اللقاء . .

— ٢٨ —

— إلى اللقاء ، ياسيدى . لا تخشى شيئاً ما دمتِ فى
حماي . اعتمدى على الله ثم على ...

وانحنى أمام « مس إيفانس » . ثم ما ليث أن دار على
عقبه فى الدرب الملتوى .

وقلت لـ « مس إيفانس » وأنا ما زلت جالساً على كومة

الحشيش :

لا أدرى ما الذى يحملكِ على اصطحابِ مثل هذا الجلاّد؟

ألا تخشينه ؟

— لا أخشى أحداً من سكان هذا الجبل إننى قد

تخبرت طبائعهم ، فإذا هم من أسلم الناس طويّةً . هؤلاء

يا صديق يعيشون على الفطيرة ، وقد حبتهم حياة الجبل أنبل

الخصال وأشرفها

— وهذه الرحلة ، وذلك الأثر الثمين . . . ؟

— إنها سلوة أدفع بها مكسل الحياة !

وجاء فى ذلك الوقت « حبيب » يحمل البريد ، فأعطى

« مس إيفانس » رسالة ، ثم ناولنى لفيفةً تحمل طابع بريد

« مصر » ، وهو يقول مبتسماً :

أظنك الآن ، ياسيدى ، مرتاحَ الخاطر لوصول ، الرِّزْمَةِ .
لقد سألتنى عنها كثيراً .

— لقد تأخر وصولها .

— لا تنس ، ياسيدى ، أن تحتفظَ لى بالصحف المصرية
بعد مطالعتها .

— بكل سرور .

وكانت « مس إيفانس » قد فضّت رسالتها ، فأخذت
تتلوها . ووجدتُ وجهها قد أشرق ، وعينها تلمعان . وما إن
أتمت قراءتها حتى قالت :

« إنهم حاضرون . . . هذا بديع ! »

ونظرت إلىّ ، وقالت :

المعذرة ، إذ أتركك الآن . . . إلى اللقاء ،

— إلى اللقاء ، ياسيدتى . . .

والتفت نحو « حبيب » ، وقلت :

« من هم الذين سيحضرون ؟ »

فقط الرجل شفتيه ، وقال :

« علمى علمك ياسيدى ! »

ورأيت طرفَ الرسالةِ الممزقَ على خطوةٍ مني ، فأخذته ،
وألقيتُ عليه نظرةً ، فإذا هو يحمل خاتَمَ البريدِ السوريِّ .
أما العنوان فسقيم الخط ، مكتوب بالإفريقية .

وسمعت « حبيب » يقول وهو متظاهر بأنهما كه في قَشْر
عود يابس :

« ما زلتُ يا سيدي ، أنصح لك بالابتعاد عن هذه
السيدة ... إن ... »
فقاطعتَه قائلاً :

أشكر لك ، يا حبيب ، أشكر لك ... والآن أرغب في
أن تذهب إلى المطبخ ، وتوصي لي بصَحْنٍ من الأرز المسلوق
في العشاء .

— أرزٌ مسلوق ؟

— بي شيء من عُسْر المضم !

— إذا عليك بحبّة البركة ...

— لا بأس ، جهّزها مع الأرز ... اذهب فأنتِ
ما أمرتُك به .

وذهب « حبيب » وبقيت بمفردي أتطلع إلى الأفق البعيد ،

وأنا أقلب الفكرَ في هذه المُعَمَّيات : رحلة « مس إيقانس »
العجبية ، وهذا الأثر الثمين المجهول ، والزُّوَّار أصحابُ الرسالة .
.. وأخيراً هذا « المجاعص » الذى يحمل وجهَ قاتل !

ولا أدري كم مضى علىَّ من الوقت وأنا على هذه الحال .
ورأيتُ الشمس تنحدر الهُويْنى فى الأفق ، وقد أخذ يتلعتها
خِصَمُ الضباب القانى ، المتراعى بأطراف الوِديان ، الزاحف علينا
مع طلائع الليل . ومرت على نَسَمَةٍ باردة اختلج على أثرها
جسدى ، فقمْتُ متباطئاً وأنا أجمع حولى ملابسى ...

وفى الصباح ، عند ما أحضر « حبيب » الفَطُور ، وقعت
عينُه على رِزْمَةِ البريد التى وصلت إلى أمس من « مصر » ، وهى
على حالها لم تُفَضَّ ، فحدَّق فى متعجباً ، فقلت :
« ليس عندى وقت لفضِّها يا حبيب ! »

فهزَّ رأسه موافقاً ، وعيناه تنطقان بضدِّ ما أبدى . ولححتُ
فى جيبه بحلة « الاستقبال » المصرية المعروفة ، فقلت :
« أجدد هذا العدد أم قديم ؟ »

فتشاب وتمطى طويلا ، وقال وهو يأكل أطراف الكلمات
من قرط كسّته :

آخر عدد يا سيدى . . .

— ومن أين حصلت عليه ؟

فتضاحك ، وأسند جسمه المجهود إلى الحائط ، وقال :

— أخذته خبيثة من «الأستاذ كنعان» !

— خلسة ؟

— لا حرج علىّ فى ذلك ، يا سيدى . إن صحف الأستاذ

تَظَلُّ فى لفائفها أبد الدهر . وعند ما يضيق بها ذرعه يرصّها

تحت السرير ، لتكون طُغمة الفيران . . . ألسْتُ أحقّ من

الفيران بها ؟

— طبعاً يا حبيب . لقد أحسنت صنعاً !

— ولكننى مع ذلك أحبُّ «الأستاذ كنعان» ، وأعترف

بأنه رجل عظيم !

— إنه عالم كبير . . .

— وهو كريم الأخلاق جداً . أتُصدّقُ أنه قضى ليله أمس

فى صُحْبَتِي ، نَحْسِي العرقى ، ونسُمُر حتى السَّحَر ؟

وفسخرَ فاه بَغْتَةً عَنْ تَسَاوُبَةٍ كَرِيمَةٍ بِصَوْتِ مُفَزَّعٍ . وسمعنا صوتَ « الشيخ عاد » ، يناديه ، فحاول استعادة نشاطه ، وهروك خارجاً من الحجرة ، وهو يتعثّر في خطاه .

وأخرجتُ إلى الشرفَةِ ، وأرسلتُ الطَّرفَ حَوْلِي أَتَأَمَّلُ جَمَالَ الطَّيْبَةِ فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ الْبَدِيعِ . وكان بعضُ الرعاة من البدو يضربونَ خيامَهم في سفحِ الجبلِ البعيد . فأخذتُ مِنْظَارِي ، وبقيتُ أراقبهم في اهتمام . وأنا أغبطهم على حياتهم الساذجة السهلة الصادقة ، وتمنيت لو استطعت أن أحياء مثلهم وقتاً من الزمن ! وتركتُ الشرفَةَ ، وخرجتُ إلى الحديقة بخطأ هَيَّئَةٍ ، وقد اعترمت أن أقضى شَطْرَ أَمْرِي فِي الْخَلَاءِ ، أَرْتَادُ الْمَنْطَقَةَ منفرداً ، كي أستمتع بِلَذَّةِ الْوَحْدَةِ بين أحضان الطبيعة . وبينما كنتُ أخترق الحديقة ، قابلتُ « الأستاذ كنعان » ، يحمل وِسَادَةً تحت إِبْطِهِ ، وهو يحجر نفسه في مشقة . . .

فتصافحنا ، وقال لي :

إلى أين ؟

— بي رغبة في ارتياد هذه المنطقة التي تحيط بنا . أليس من العار أن أعيش فيها ، دون أن أعرفَ عنها شيئاً ؟ أتصدّق أنني لم أفارقَ الفندقَ وحديقته منذ قَدِمْتُ ؟

فنظر إلى بعيونه المنتفخة المُطَبَّقَةِ الأجفان ، وانفجرت
أشداقهُ المترهلة بقوله — وهو يحاول نَصْبَ قامته — :
لقد أحسنتَ صنعا ، يا ولدى ، بتدارُكِ هذا النقص ...
إنك لو علمتَ ماذا تحوى هذه المِنْطَقَةُ من كنوز طبيعية نادرة ،
لاستحوذتَ عليك الدهشة والتعجب !

— أَقُمْتَ فيها بأبحاثٍ علمية يا أستاذ ؟

— إنك لو سألتَ حَضَبَاءَ هذا الوادى ، واستجوبتَ
صخورَ ذلك الجبل ، أروتَ لك ما عانيتُ من مشقة فى بحثي
واستقصائى . أنت تجهل بلا ريب أنى أُعِدُّ محاضرةً فى طبقات
أرض هذه المِنْطَقَةِ ، وأطوارها فى التاريخ ...

— بحث ممتع بلا ريب !

— ولكنه متعب يا ولدى ! أتصدِّقُ أنى قضيتُ ليلةً
أمسٍ — لم يَغْتَمِضْ لى جَفَن — وأنا منكَبٌّ على أوراقى
وكتبى ، والقلم لم يبرحْ يدي لحظة ؟

— كان الله فى العون !

— والآنَ أنا فى حاجة إلى التمدُّد قليلا فى الحديقة .
أليس لأبداننا علينا حق ؟

— دون شك يا أستاذ . . . ولماذا تركت حجرتك ؟

— إنها بجوار المطبخ ، فالدُّق لا ينقطع في ليل ولا نهار .

وظهر بيننا « الشيخ عاد » بغتة ، وسمعناه يقول ، وحبَّاتُ
الشَّيْبَةِ تَتَسَقَّلُ بين أصابعه :

« ستنعم يا أستاذ ، من الغد ، بنوم هنيئ . لقد أمرتُ بنقل
المطبخ إلى مكان بعيد »

فقلتُ :

« حقاً إن الأستاذ لا ينال حظَّهُ من هادئ النوم ، مع أنه
يحتاج إلى الراحة . إنه دائم التجوَّال في المنطقة المحيطة
بنا باحثاً منقياً ، يدرس طبيعة الأحجار ، .

فقال « الأستاذ كنعان » موجهاً كلامه إليّ :

« أحسبك سوف تحذو وتحذوي . . »

فالتفتُ إلى « الشيخ عاد » وقال :

« ماذا ؟ ألك أنت أيضاً شغفٌ بهذا العلم ؟ »

فقص « الأستاذ كنعان » عليّ « الشيخ عاد » ، رغبتى في

الارتياح هذه المنطقة . فقال الشيخ :

« كلكم هذا الرجل . . . غير أن « مس إيقاس »
تفوقكم في هذا الشغف ، ولها غرام جنوني بالكشف عن
الآثار المجهولة . . .

انظرتُ إليه متسائلا ، فروى لي كيف أنها كلّفته مساعدتها
في الكشف عن أثرٍ قديم ، يقال إنه قائم خلف هذه الجبال .

وتركتُ « الأستاذ كنعان » يهنأ بنومه اللذيذ ، وخرجت
من الفندق ، ووقفت قليلا أرسمُ خطةَ السير . وتلفتُ أحاول
تحديد الأمكنة ، ونور الشمس يسطع بشدة في ذلك الفضاء
الفسيح . . . فدفعتُ بقدمي ، وسرتُ أضرب في فلكوات هذه
البقعة الجرداء ، على غير هُدى ووجدتني أسألك نفسي : ترى
هل أقابلها ؟ . . . وسرتُ ، ثم سرتُ ، والسؤال لا يفتأ
يردد في خاطري . . . أتكون قد نصّبتُ خيستها اليوم
بالقرب من مَضْرِبِ هؤلاء الرعاة في ذلك المكان القصي ؟
وبعد لا شيء وصلتُ إلى هنالك ، وجُبتُ الناحية ، فما تركتُ
موضعا لم أزره ، وما وقع بصري إلا على هؤلاء الرعاة المتعشقين
بوجوههم الطويلة المشدودة البشرة ، وحوْلهم أغنامهم الهزيلة .

وكلاهم الضامرة . وقد تجمع القوم إلى ، يرحبون بي .
وبالفون في إكرامى .

وانجبت مرة صوب الشمال ، ومرة نحو الشرق ، وثالثة
إلى الجنوب ، وهلم جرا ، حتى أحسستُ قدَمى لا تستطيعان
تحملى . فأخذتُ سَمْنَتِي أخيراً إلى الفندق ، وقصدتُ من فورى
إلى المدينة ، وذهبت حيث « الأستاذ كنعان » ، فوجدته
يغطُّ في النوم . فاخترتُ مكاناً غير بعيد منه ، وارف الظل
غزير الشَّجَب ، فتمددتُ عليه ، ورُحْتُ في سُبَات .

• • •

ولما حان وقت الغداء ، جاء « حبيب » فأيقظنا . . .
ولم تشاركنا « مس إيفانس » فى الطعام . وبعد أن انتهينا
من الأكل ، تراميتُ على مقعد مُرِيح ، وانطلقتُ أدخن
وأتناول القهوة . وخرج الجميع فلم يبق فى الحجرة إلا أنا
و « حبيب » وكان ينظفُ المائدة . ولضيق المكان فى الفندق ،
كنا نتخذ حجرة الطعام بهوّاً للمسامرة والتدخين . وكان « حبيب »
« حبيب » منتفخاً بالصُّخْف والمجلات . وسمعتُه يُفِيضُ فى

حديث لا مُنتَهَى له ، لم أعره اهتمامي ، إذ كنتُ مشغولاً بالتفكير
في بعضِ شأني .

ولما انتهت مهمَّتي ، ورأى مني إغراضاً ، تركني في الحجرة
وخرج ، فكنتُ وحدي أنعم بتدخين لفائتي . وفيما كنتُ على
هذه الحال ، شهدتُ « مس إيفانس » ، تدخلُ الحجرة ، فوقفتُ
على التواءِ أحييها ، فقالت :

أخشى أن أكونَ قد قطعتُ عليك سبيلَ تفكيرك !

— لم أكن أفكرُ في شيءٍ بعيدٍ عنك !

— كيف ؟

— أصرح لكِ أنني كنتُ أفكرُ في رحلتك ..

— ألي هذا الحد تهتمُّك هذه الرحلة ؟

— أعترف لكِ بأنني كثيراً ما فكرتُ فيها ..

— وكيف تَراها ؟

— أراها مخاطرةً تستوجبُ الحذر .

فضحكتُ طويلاً ، وقالت :

« إنك تبالغ .. »

ثم جلست ، وأشعل كلُّ منا لفافة ، وغمرنا الصمتُ
هنيئَةً . وأخيراً تكلمت : « مس إيفانس ، وهى تنفُث دخانَ
لفاقها فى تأنٍ . وقالت :

لعالك تعجَّبُ إذا أخبرتك بأننى صرفت أكثرَ من عام ،
وأنا أشتغل بجمع المعلومات عن هذا الأثر الثمين الذى حدثتُكَ
فى شأنه ، حتى استطعت أن أحقق موضعه . . .

— وكيف انتهى إليك خبر هذا الأثر الثمين ؟

— حضرتُ فى الصيف الماضى إلى « لبنان » أنشد العزلةَ فى
هذه البقعة الساكنة ، فسمعتُ من بعضهم قصة عن « قصر
مسحور » تسكنُه الأشباح ، ينطوى عليه بطنُ الجبل الذى
يحيط بنا . فشغفت بهذه القصة . واعتزمتُ ارتيادَ هذه البقعة ،
لاكتشافِ موضعِ القصر ، وإماطةِ اللثام عن سرِّه الخفى . . .
فقلت ، وأنا متحير :

أيسكونُ هذا الأثرُ الثمين وقصرُك المسحورُ شيئاً واحداً ؟
— هو ذلك !

فصمتُ حيناً ، وأنا أحدِّقُ فى وجه « مس إيفانس »
لأثبتت من صدق قولها . وقد خَطَرَ ببالى — أول وهلة — أنها

تهزأ بي ، فرأيت وجهها ينطقُ بصدقٍ وإخلاص . فقلت لها :
أتعتقدين إمكانَ رؤيةِ الأشباح ؟
— لم أر في حياتي حتى الآن واحداً منها !
ومكثت تحديقُ في دخان لفاقتها ، وتقول :
« إنما قد . . . »

فقلت لها :

أوائقة أنت من وجود هذا القصر ؟ أخشى أن تكونَ القصة
أسطورةً من الأساطير !
— كلا ، لقد تأكدتُ وجوده ، وهو قائم في بقعة موحشة
نأت عن العمران . . .

— وهل حدثتُك في شأنه شخص رآه بعينه ؟
وما كدت أتمُّ جملتي ، حتى قدِمَ علينا حبيب ، وقال
له مس إيفانس :

« الثلاثة الزوّار الذين تنتظرينهم قد حضروا يا سيدتي . . . »
فالتفتت نحوي « مس إيفانس » وهي متلهةً الوجه ، وقالت :
« إن هؤلاء الزوّار يستليمون الإجابة عن سيالك ، يالسه
من اتفاقٍ غريب ! »

وقالت له حبيب :

« أذنِ خلتهم حالا ،

وانثنت إلى تقول :

« لقد حضروا في الموعد الذي حددوه لي في الرسالة . ألا

تجزي أنهم جديرون بالإعجاب ؟ »

وبعد قليل دخل الحجرة ثلاثة رجال من العرب ، لا يختلفون

في ريتهم وسخنتهم عن رعاة الغنم . . . وأرسلت عيني فيهم ،

فلم أستطع أن أتبين فرقا يُمَيِّز بعضهم من بعض ، فكأنهم

توائم . وأقبلوا علينا ، فحسونا أحسن تحية ، ووزعت « مس

إيفانس » عليهم اللقائف ، وأمرت لهم بالقهوة ، وبدأت تحادثهم

بعريتها المشهوشمة ، في لحظة لطيفة . . .

وألقيت سؤالاً عليهم ، فوجدت واحداً منهم قد نهض قائماً ،

وتقدم من « مس إيفانس » ووجهه يفيض حماساً ، وهو يقول :

« لقد كنت واحداً من عشرة رجال ، قاموا للكشف

هذا القصر ،

فقلت له :

وهل وصلتُم إليه ؟

— كذنا ، ولكننا لم نفعل !

— لماذا ؟

— لقد منعنا شياطين القصر !

فتضاحكتُ مقهقهاً ، فدنا الرجلُ مني ، حتى لم يَعدْ بيني وبينه
إلاَّ خطوةٌ واحدة ، وقال ، وقد اشتدت لمعةُ عينيه :

« أقسم لورأيتها وهي على ذروة الجبل تلتقي علينا الحجارة
الغليظة ، لما بدّرتُ منك هذه الضحكة ! »
فقلتُ محاجياً :

« وهل رأيتها أنتَ بعيني رأسك ، وهي تقذفُ عليكم
الحجارة ؟ »

فانتفض الرجل انتفاضةً المحموم ، ودقَّ صدره يدينه ...
وقال :

« أوتظنُّني كاذباً ؟ »

وكان « حبيب » قد أتى بالقهوة ، فعاد الرجل إلى مجلسه ...
والتفتُ إلى « مس إيفانس » وقالت في طُمأنينةٍ موفورة :
« إنهم لا يكذبون ... »

ثم سألتُه في تفاصيل ذلك الحادث ، فطَفِقَ يقول :
« كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً ، وأنا في أنضريِ عمري »

أرسلنا المُتَصَرِّفُ مع بعض رجال الدَّرَكِ لِنُبْحَثَ عن هذا
القصر ، وكان قد اتصلَ بعلمه أنه يَحْوِي كَنُوزاً . فانطلقنا في
شِعَابِ هذا الجبلِ الأغر ، كأننا الذئابُ الجِياعُ تَبْحَثُ عن
فريسة . وقضينا عَشْرَةَ أَيامٍ ، حتى كدنا نَهْلِكُ . وما إن شارفتْ
مهمتنا تَمَامَها ، وأوشكنا أن نصلَ إلى القصر ، حتى أحسنا
الجبلَ يَتَزَلَّزَلُ ويتفكَّكُ حولنا ، وسمعنا دَوِيًّا قاصفاً ،
وانطلقت الحجارة هاويةً علينا ، كأنها طَلَقَاتُ الرَّصَاصِ .
وَصَرَخَ أَحَدُنَا : « الشياطين ترجئنا . . . الهرب ! الهرب ! »
فرفعتُ رأسي فإذا أشباح سوداء هائلة يندلع من عيونها
اللَّهَبُ ، تتضاحك في بشاعة ، وترمينا بِكُتَلِ الحجارة الضخمة .
فكلما أراد الهربَ من هذه الكُتَلِ واحدٌ منا ، رمى بنفسه
في الهاوية ، فلا يصل إلى قاعها إلاَّ مَحْطَماً . . . لقد قُضِيَ على
زملائي كالهم في لحظات معدودة ، ولم ينجُ أحدٌ غيري . نجوتُ
وأنا في حالةٍ يَفْضُلُنِي فيها المِيتُ !
فقلت له :

وهل رأيتَ بنفسك القصر ؟

— أصدقُك القول . . . إني لم أر شيئاً في شكل قصر .

ولكنني أبصرتُ جزءاً من جبل به كجِوَات كالتى تكون عادةً
فى الجبال . وقد أشار إليها رئيسُ الدَّرَك وهو يقول :
« هذا هو القصر المسحور ! »

وهنا سألتُه « مس إيفانس » : هل يرضى أن يرافقها فى رحلتها ؟
فاعتذر بكبر سنه وكثرة من يعولهم من أفراد أسرته . ولكنه
وعدّها أن يقدمَ لها كلَّ ما عنده من معلومات ذاتِ شأن .

وروى لنا ثانى الزوار حكايةَ شابٍّ استهوته قصة القصر
المسحور ، فخرج منفرداً يطلبُ كَشْفَه ، ولكنه لم يَعُدْ ، ولم
يسمع عنه أحدٌ خيراً . فنظرتُ إلى « مس إيفانس » ، وقلتُ :
« على الرغم من كل ذلك تستهدين للخطر ، وتُصرِّين على
الذهاب لاكتشافه ! »

فابتسمتُ ابتسامة عريضةً ، وقالت :
« قلتُ لك إننى أهوى المخاطر . . . أضف إلى ذلك أن

اعتقادتى وثيق فى القضاء والقدر . . . »

ومع معارضتى لها ، ودهشتى لإصرارها ، كنت فى صميم نفسى
معجباً بشجاعتها النادرة ، موافقاً على رخصتها الخطيرة ، وقلتُ لها :
إذا صحَّ وجودُ هذا القصر ، فسيكون من أكبر العجائب !

- وهذا ما يخفّرني لاكتشافه .
- هل وصلت إلى معرفة تاريخه ؟ في أيّ العصور بُني ؟
ومن شَيْده ؟
- لدىّ معلوماتٌ مُهوّشة في هذه النقطة ، ولكن الشيخ
وعدني أن يأتي لي بالخبر اليقين . . .

وفي الغدِ شاركتنا « مس إيقانس » في طعام الغداء .
وكان حديثنا على المائدة حديثاً مألوفاً ، لم يتعدّ اعتدال الجوِّ ،
وطيبَ الفاكهة ، وجودة المياه . ولما انتهينا من الأكل ، دعاني
« الشيخ عاد » لتناول القهوة في حجرته الخاصة ، ودعا معي
« مس إيقانس » و « الأستاذ كنعان » . وجلسنا على الوسائد
الأرصية المريحة ذات المساند الليّنة . وكانت حجرةً بديعة ، كلُّ
ما فيها ينطق بذوق شرق أصيل .

وأوصى « الشيخ عاد » بأن تجهز القهوة والزاجيل ، وهو يقول لنا :
« لدىّ طباق عجميّ فاخر ، لا مثيل له في الشام كلها » ،
وأخرج مُبّسّحة ذات الحباتِ الحمرِ السكيرة اللامعة ، وأخذ
يداعبها بين أنامله هنيئة ، ثم قال في صوت رفيع ، ولهجة رزينة

« حقاً يا « مس إيفانس » ، إن حكاية قصر ك المسحور أعجوبة
الآعاجيب . كنت معتقداً قبل تكليفك إياي استقصاء خبره ،
أن قصته خرافة من الخرافات الشائعة ، فلم أعرها اهتماماً
مطلقاً ، ولكني الآن بعد أن بحث الأمر جلياً أجدني أمام أثر
طريف له تاريخ عجيب ا » .

فأشرق وجه « مس إيفانس » والتفتت إلى متسمة . وتكلم
« الأستاذ كنعان » فقال :

« لقد درست آثاراً سوريّة جميعها ، ومن بينها هذا القصر ،
وإني لأذهش كيف خفي أمره عليكم إلى هذا الحد ا » .
فابتسم الشيخ ابتسامة لطيفة ، فيها إشفاق ومداعة ،
وقال :

« إذا حدّثنا أنت ... إننا لفي شوقٍ عظيمٍ لسماع
ما عندك ا » .

وفي هذا الوقت جاء « حبيب » بالقهوة ، ثم خرج ...
وعاد بعد وقت قصير يحمل الزجاج الأربعة ، ووضع أمام كلٍّ
حناة واحدة منها ، ثم مضى ...

وعمّ الصمت المكان فترة من الزمن ، ثم بدأت الحجرة

تجاوب بفرقة هادئة ، كأنها ضحكات مكتومة من كائنات
غير منظورة وأخذت تنعقد أمامنا وفوق رؤوسنا
محب رقيقة ، فتمتد وتغلظ تارة ، ويندمج بعضها في بعض
تارة أخرى ، فتبدو لنا كأنها أشباح عجيبة تزدهم علينا ،
لتصغى إلى ما نتحدث به في أمر هذا القصر المسحور !
ونحى « الأستاذ كنعان » فمه عن مبسم النارجيلة ، وقال :
« كان يجدر بكم أن تسألوني في هذا الأثر العظيم . إنه
من بقايا الرومان ، وعمارته بيزنطية بحتة ، والذي شيده
الإمبراطور يونان »

فقلت له :

« وليكننا ، يا أستاذ ، أمام قصر حديث ، بناه أحدُ شيوخ
الجيل ! »

فزوى « الأستاذ كنعان » ما بين حاجبيه ، وتحركت شفاهه
حركة إنكار ومعارضة ، وانهمك في نارجيلته يستمع إلى
هزقتها . . .

ووصل « الشيخ عاد » ما انقطع من حديثه ، قال :
« لقد بنى هذا القصر رجلٌ يسمى « الشيخ بشير الصافي » . »

كان شيخاً من شيوخ الجبل المشهورين ، موطنه في الجنوب .
فليس هو من أبناء هذه الجهة . لذلك ظلّ تاريخه لنا نحن
سكان الشمال محوطاً بالأسرار . وكان الرجلُ عظيمَ السلطان
على بني قومه ، تَوَازَرُهُ عشائُرُ شتى ، وله مع الدولة العثمانية
مواقف مشهورة وكان الولاية يرهبون جانبه ، ويجاملونه
ما استطاعوا ، ويضمرون له الشرَّ للإيقاع به عند إمكان
الفرصة . ولكن فطنة الرجل وسعة حيلته ، جطته يخشى أن
يقلب له الدهرُ يوماً ظهرَ المِجَنِّ ، فاختر مكاناً في ناحيتنا
الموحشة المنعزلة ، في ركن يُخفيه بطنُ الجبل ، ويصعب الاهتداء
إليه فشيّد فيه قصراً محصّناً ، اتخذَه ملجأً يعتصمُ به هو ومن
معه ، إذا اضطرم الأمر إلى الاستخفاء . .

فسألته « مس إيفانس » :

وهل التجأ فعلاً إلى هذا القصر ؟

— لا أدري على وجه التحقيق .

وقلت :

« الغريب في هذه المسألة أن يشيّد شيخ مشهور من
مشايخ هذا الجبل ، ذلك القصر الغريب ، ثم يظلّ أمرُه خفيّاً
لا يكاد يعلم به أحد ،

فقال « الشيخ عاد » :

« إن الأسرار تُحِيطُ بذلك القصر دائماً منذ بدئته . وهذا ما أراده صاحبه له . ففي الوقت الذي كان فيه يُبنى — أو بالأحرى : يُنحت ، إذ أنه منقور في صميم الجبل — لم يكن أحد من أبناء هذه الجهة يعلم سرَّ بنائه . وهكذا ظلت حقيقته لغزاً من الألغاز ، وأصبح عند بعض الناس خرافة ليس له وجود ، وعند بعض آخرين مكاناً تَعْمُرُهُ الشياطين ! »

فقال « الأستاذ كنعان ، في اهتمام :

« وهل الشياطين فيه حقاً ؟ »

فابتسم « الشيخ عاد » ، وهو ينظر إلى « مس إيفانس » ، وقال :

« هذا ما ستحققه لنا مس إيفانس ، ! »

وَجَمَّجَمَ « الأستاذ كنعان » ، وهو يرسل الدُّخَانُ في عَيْثِهِ :

« لم أسمع في حياتي بـ « بشير الصافي » ، هذا مُشِيدِ القصر ، »

ولم أقرأ شيئاً يتعلَّقُ بحوادثه مع الدولة . »

فقال « الشيخ عاد » ، وهو يحرِّكُ حباتِ بُحْبَحَتِهِ مبتسماً :

« ليس هذا ذنبُ الرجل يا أستاذ ، »

ثم استدرك على جملته ، فقال :

« لا تنسَ أن شخصية « الشيخ بشير » تكاد تكون من شخصيات الأساطير ! »

وسألت « مس إيفانس » الشيخ ، قائلةً :

ومن يملك القصرَ اليوم ؟

— لا أحد !

— أليس للرجل ذُرِّيَّة ؟

— كان له حفيد ، انتهت حياته بفاجعة ألمية !

— كيف ؟ !

وحدّقنا جميعاً بأبصارنا في « الشيخ عاد » ، ورأيت « الأستاذ كنعان » يُنصِتُ إليه في شَغَفٍ ، على تظاهره بقلّةِ الاكتراث . واعتدل الشيخ في جلستِهِ متربّعاً ، وجَذَبَ نفساً طويلاً من النارجيلة ، فانبعث لماثها هدير عال ، كأنما هي أيضاً تطالبه أن يروى لنا حكايةَ هذه الفاجعة !

قال الشيخ :

« قصة هذا الشاب الذي لَسِقَ حَنَفَهُ ، وهو في العشرين من عمره ، يرجع عهدها إلى ما قبل ثلاثين عاماً أو أبعد . كان اسمه « يوسف الصافي » ورث عن جدّه الشهامة والزعامة ،

كما وِثَّ عنه ثروة جليلة القدر . ويؤكد الناس أنه لو هادنَّته
المقادير حيناً لَبَزَغَ نَجْمُهُ ، ولأصبح أميراً على هذا الجبل .
ولكن . . . ولكنه الحب الذي كان مبعثَ نكبته ! لقد هام
الشابُّ بفتاة من أسرة عريقة ، هام بها هياماً جنونياً ، وبادلته
الفتاةُ الغرام ، فأحبَّته حبَّ عبادة . وتناقل الناسُ أخبارَ حبِّهما
العذريِّ الرائعِ كما يتناقلونَ الأقاصيص ، وأصبح العاشقان
بطلين من أبطال الهوى ، كقيس بن الملوِّح وليلاه ، وجبل
وُثَيْنَتِيَّة . ورفض الأبُّ أن يزوج ابنته « يوسف الصافي »
وتابعت الأيام ، وأُعلِنَتِ خطبةُ الفتاة لشابٍّ آخر . . .
وحلت أخيراً ليلةُ الزفاف . وبينما كانت العروسُ في منصَّتها
محقوقةً بأفراد أسرتها وصويحباتها تنتظرُ عرووسها ، إذ ظهر
« يوسف » أمامها ، لا يدري أحد من أين جاء . . . يزعم
ناس أن الأرض انشقت عنه ، يزعم آخرون أن الجدارَ
انصدعَ فظهر منه . . . ولبت الناسُ فترةً في ذهولهم مصعوقين
من هذه المفاجأة . وما هي إلا أن أخرج « يوسف » من
صدره غداةً كبيرة ، وصوَّبَها إلى الفتاة فأرداها قتيلاً . . .

وانستخفى من حيث أتى ، لا يعرف أحد كيف خرج ، وأى طريق سلك ؟

وصمت ، الشيخ عاد ، لحظة ، أمر فى أثنائها ، حبيب ، بأن يغير لنا جمرَ التراجيل . واستأنف الشيخ قائلاً :

« وبعد انقضاء أشهر على هذه الحادثة ، روى الناس أنهم وجدوا جثة « يوسف » مطروحة بجوار جدول من الجداول ، وتحققوا أنه قتل نفسه برصاصة فى القلب ، وبموته انقضت أسرة « الصافي » ، وانطوى مجدهما العظيم . . . »

وسمعت « ميس إيفانس » تقول :

والقصر ؟

— إن الحكومة لم تُجَنِّ بأمره ، وقد تكون اهتمت بموضوعة وقتاً ما ، ثم أهملته لخطر موقعه .

— وهل سكن « يوسف » القصر قبل وقوع الجريمة ؟

— يشاع أنه سكنه فترة من الزمن ، وكان يُعِدُّه لقضاء

شهر العسل فيه .

فغمغمت .

« بِالْغَرَابَةِ أَطْوَارُهُ أَيْعِدُ قَلْعَةً فِي وَسْطِ الْجِبَالِ الْقَاحِلَةِ »
« تَتَكُونُ مَقَرًّا لِّلْعُرُوسَةِ ؟ »

فَقَالَ « الشَّيْخُ عَادَ » :

« الْجَنُّونُ فَنُونُ ، يَا سَيِّدِي ! »

وَقَالَتْ « مَسْ إِيقَانَسْ » :

« رُبَّمَا ضَمَّ هَذَا الْقَصْرُ آثَاراً وَوَثَائِقَ تَكْشِفُ السِّرَّ عَنْ
بَعْضِ الْحَقَائِقِ فِي قِصَّةِ الْعَاشِقَيْنِ ! »

فَأَجَابَهَا الشَّيْخُ :

« هَذَا مُحْتَمَلٌ يَا سَيِّدَتِي . . . »

وَأَفْئَدُنَا جَمِيعاً صَمْتٌُّ مَدِيدٌ ، فَلَيْسَ مِنْ صَوْتِ فِي الْحَجَرَةِ سِوَى
قِرْقَرَةِ الْمَاءِ فِي جُوفِ الزَّرَاجِيلِ ، وَزَفِيرِ أَنْفَاسِنَا نُرْسِلُهَا مِنْ
أَفْوَاهِنَا عَمَزُوجَةً بِالِدُخَانِ الْمُعْطَّرِ الشَّدِيدِ .

وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ آذَنْتْ بِالْمَغِيبِ ، فَانْعَكَسَ لَوْنُ الشَّفَقِ
الَّذِي يَغْمُرُ الْأَفُقَ الْبَعِيدَ عَلَى نَوَافِدِ الْحَجَرَةِ ، فَتَضَرَّرَتْ
أَرْكَانُهَا بِلَوْنِ أَرْجُوَانِيٍّ فِيهِ رَوْعَةٌ وَسِحْرٌ .

وَخَرَجَ « الشَّيْخُ عَادَ » مِنْ صِمْتِهِ ، يَقُولُ لَهَا « مَسْ إِيقَانَسْ » :

« مَتَى تَبْدِئِينَ رِخْلَتَكَ ؟ »

— عقب انتهاء « مجامع » من إعداد الدوابّ والمتؤونة...
أيضاً يَشْكُ أن يكونَ في صَحْبِكَ شخصٌ مُخْلِصٌ، وربما
أَدَّى إِلَيْكَ بعضَ الخدماتِ ؟

فَنظَرْتُ إِلَيْهِ مَبْتَسِماً ، وَفَسَطَنْتُ إِلَى مَا يَرْمِي إِلَيْهِ ، وَقَالَتْ :
« إِنِّي أَرْحَبُ بِكَ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي ! »
وَتَنَحَّنَتْ طَوِيلاً ، ثُمَّ قَلَّتْ :

« لَقَدْ اسْتَهْوَتْني قِصَّةُ هَذَا الْقَصْرِ ، وَيُلَوِّحُ لِي أَنْ ... »

فَقَاطَعْتُني « مَسْ إِيفَانَسْ » ، وَقَالَتْ وَهِيَ مَا تَزَالُ تَبْقِمْ :

« وَبَسْرَنِي أَيْضاً أَنْ تَنْضَمَّ إِلَيْنَا ... »

وَنَظَرْنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ إِلَى « الْأَسْتَاذِ كَنْعَانَ » ، فَأَلْفَيْنَاهُ مِنْهُمَا
يَدْخُنُ النَّارِجِيلَةَ ، أَوْ بِالْأُخْرَى مَتَظَاهِرَا بِالْأَنهَمَاكَ ... فَقَالَ
« الشَّيْخُ عَادَ » :

« أَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّ الْأَسْتَاذَ يَرْحُبُ بِصَحْبَتِنَا ... سَتَجِدُ ،
يَا أَسْتَاذَ ، فِي هَذَا الْقَصْرِ مَادَّةَ تَارِيخِيَّةٍ طَلِيَّةٍ تَزِيدُ بِهَا
أَبْحَاثَكَ الشَّائِقَةَ ! »

وَرَفَعَ الْأَسْتَاذُ وَجْهَهُ الْمُتَجَهِّمَ نَحْوَنَا ، وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً
مَغْتَصِبَةً ، وَقَالَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْاضْطِرَابِ :

« هذه رِحلة تتفق وأمياى كل اتفاق ا »

وولكت « مس إيفانس » أمر قيادة البعثة ، وإعداد مُعدّاتها
إلى « الشيخ عاد » . . . وقد قررنا ألا يكون لنا تابع سوى
« مجاصص » ، وألا نأخذ من الدواب غير بغلتين ، واحدة للحمل
الحيمة والمسؤونة ، والأخرى تتناوب ركوبها . . .

استيقظتُ في اليوم المحدود مبكراً ، في الخامسة ، وكان
يغمُرُنِي انشراح عظيم ، وخرجت الى الشُّرقة أستنشق نسيمَ
الصباح البارد في شَغَفٍ ، وأدور بعيني فيما حولي أستمتعُ بجمال
الطبيعة الخلاب . ثم عدت أتناول فطُوري من الفاكهة
واللبن الرائب .

وعند ما حلت السادسة ، كنتُ في وسط الحديقة منتظراً
الرِّفاق ، وبجوارى حُرمةٌ تحوى الضرورى من ملابسى . ولم
يَطلُ انتظارى ، فقد ظهر « الشيخ عاد ، و « مس إيفانس » . . .
وكان « الشيخ عاد ، يرتدى ثياباً عربيةً جميلة : كوفيّةٌ زاهية
اللون حولها عقال مُقَصَّب ، وسروالٌ من الجوخ الأسود مطرّزاً
بوشى متناسق ، وعَبَاءة من الحرير ناصعةً البياض . . . أما
« مس إيفانس » فقد ارتدتِ صَدَارَ صوفٍ « بول أوفر »
وسروالاً يُلْبَسُ لركوب الخيل ، وقبعةً من « الفلين »

عريضةً بيضاء ، وحذاء عسكرياً يصل حتى الركبة . فكانت
بديعةً في ذلك اللبس الرياضي ، وازدادت في عيني وسامة وحسناً .
أما أنا فكانت ملابسي في جملتها عادية ، ماعدا القبعة
العريضة .

وتصافحنا ، ونحن مشرقو الوجه ، كأننا في يوم عيد . .

وقلت لـ « الشيخ عاد » :

هل أعدَّ كلُّ شيء ؟

— كلُّ شيء مُعدَّ .

— والأستاذ كنعان ؟

— لم يظهر بعدُ .

وقالت « مس إيفانس » :

« نذهب إليه . . . »

وقصدنا إلى حجرة « الأستاذ كنعان » ، فراعنا صوتٌ غريب

يشيع في أرجائها ، فأنصتنا ، فإذا به غطيطٌ مزيج ، يعلو

ويهبّط في نغمت شاذّة ، وفي حشجةٍ سقيمة . فتقدم

« الشيخ عاد » ، ودق الباب ، فلم يجبه إلا الغطيط ، وتابع

« دقه » ، والنائم على حاله يملأُ الجوَّ بصوته الكريه وأنفاسه الجفاة ...

واخيراً تقدمتُ و« مس إيفانس » نعاونُ الشيخَ في دقته
الباب ... ولكن لا حياة لمن تنادى !

وقامت بي رغبة صادقة في استطلاع سرِّ هذا الغطيظ غير
الطبيعيِّ . فاستأذنتُ صديقتي وصديقي ، وجعلتُ أنظر من
ثقب المفتاح ، فإذا بي أرى « الأستاذ كنعان » جالساً على سريره
يتميز غيظاً ، وهو منهمك في إرسال غطيظه العجيب ، يوهننا
به أنه مستغرق في نوم عميق . فرفعتُ رأسي ، وأشارت
لـ « مس إيفانس » أن تنظر ، ففعلتُ ، ثم أشارت هي إلى
« الشيخ عاد » أن ينظر ، ففعل ... وتبادلنا النظرات المصحوبة
بالابتسامات ، وتركنا المكان ، نمشي على أطراف الأصابع .

كان ينتظرنا — عند مدخل الفندق — « مجاعص » بالبنطيين .
وقد لاحظتُ أنه اعتنى بقتل شاربه ، وإكساب وجهه مظاهر
العظمة الكاذبة . وبعد أن تفقد « الشيخ عاد » لوازم الرحلة ،
أصدر أمره بالمسير ، فسرنا ... « مجاعص » والبنطيان في المقدمة ،
ثم « الشيخ عاد » فـ « مس إيفانس » وأنا معها في المؤخرة .
وقد أعدت إحدى البنطيين للركوب ، فمن أحسن منا تعباً فهي

له ، وأما الأخرى فتحمل مؤؤوتنا وما يلزم لنا :
وسرت بخطوات متزنة ، أضربُ بعضاً الأرض ضرباتٍ
تفسج مع خفقٍ قد دعى .
وكان الطريق صاعداً متعرّجاً ، أرضه صُلْبَةٌ مملوءة بالحجارة ،
فكأنّ هذا الضربَ من السير ضرورةٌ طبيعية تقتضيها هذه
الاحوال .

وسار رفاقي أيضاً مثلَ سيرى ، فكانت تنبعثُ لوقع العصي
المتزن ، المتساوٍ مع صوت خطانا على الأرض الصخرية ،
نغمة جديدة في أذني ، أشعرتني بخطر المهمة التي اعزمتنا
الإِضْطِلاعَ بها . فكأننا فرقةٌ من الجند ، توجهنا لكشف مخبأ
لبعض قطاع الطريق نباغتهم فيه .

وظللتُ منكسَ الرأس ، مغموراً بسيل من الأفكار
المتضاربة . فإذا رفعت عيني ، طالعنتي هذه الأشكال الثلاثة :
« مس إيقاس » بقوامها المبسوطِ الفاتن ، وقبعها العريضة .
« والشيخ عاد » بجسمه الممتلئ ، وكوفيته الحريرية الطويلة
المُتَدَّاب . وذلك « المجاعص » الذي يشبه الجلادين في مشيته
وهيئته . . . وكان ظلهم المتطوق بهم يتبعهم وهو يتخايل

متكسراً على الصخور المختلفة في أشكال غريبة .

ولم أسمع « مس إيفانس » تتكلم . فهل كانت تفكر في مصيرها
كما كنت أفكر ؟ وبدأنا نشعر بوَطْأَة الحرِّ ، فخلعنا
بعض الملابس ، وألقيناها على الأكتاف

والتفت « الشيخ عاد » إلى « مس إيفانس » يقول لها :
« أتشعرين بتعب ؟ »

فأجابته في لهجة تأكيد وأنفحة :

« كلا كلا »

وكان وجهها قد بدأ يحترق ، وتعرضه خيوط رقيقة من
العرَق

ونظرت إلى البغلة التي أُعدَّت لمن يتعب ، وجعلت أفكر
فيمن يكون أول راكب . فأزمنت في خبيثة نفسي ألا أكون
ذلك الشخص ، مهما يكن من إعياء

وتابعنا سيرنا في صمت شامل . ولكن النسيم الخفيف الذي
كان يتمسح بوجوهنا ، جعل يحمل إلينا أصواتاً من بعيد ، تبيننا
فيها أهازيج بعض الرعاة وكان غناءً ساذجاً لطيفاً أدخل
على بعض الطمأنينة ، وغير شيئاً من نفسيّتي الحرجة

ولم يمض على ذلك وقت طويل ، حتى سمعنا صوت
 « الشيخ عاد ، يعلو في الجوُّ بأغنية تعبّر عن تلك الحياة
 الفطرية التي يحياها الإنسان البدائي في هذه النواحي المنعزلة .
 وشجاني غناؤه ، فأنصتُ إليه كلَّ الإنصات ، وشملتني سكونة
 نادرة ، وأدركتُ بصرى فيما حولى ، فإذا بالجبال الشاهقة المخيفة
 التي كانت توحى الىَّ منذُ لحظة بالخطر ، تبتسمُ لي في جمال
 وجلال . . . واختفت من مُخيّلتى فرقةُ الجند الذين يريدون
 مباغتهَ اللصوص في المخايء ، وحطّت مكانها طائفةٌ من
 الحُجّاج الصالحين يسرون نحو المعبَد العظيم ، حيث يتغنون
 رحمةَ الله ورضوانه !

وسرنا كذلك وقتاً ، وغناءُ « الشيخ عاد ، يصحّنا ،
 فيجدّد من نشاطنا ، ويوسعُ فُسحةَ الأمل أمامنا . وراحت
 خطواتنا وهي تُصعّدُ في بُطءٍ وانتظام ، تتّحد بالغناء ،
 وتؤلّف وحدةً فنيةً هي أقربُ إلى الرقص الإيقاعي الساذج ...
 وعدنا نرتدى ملابسنا التي خلعناها ، إذ كان الجوُّ قد بدأ
 يبرّد ، والهواء يشتدُّ في هبوبه . . .
 وأخيراً استوقفنا الشيخُ قائلاً :

« فلننظر حولنا يارفاق ! »

فطُفنا بأنظارنا ، فإذا نحن على السقمة ، وإذا بالفندق تحتنا
تقطة ضائعة بين الصخور . . . وراعنا ما قطعناه من طريق
شاق عسير . وقال « الشيخ عاد » :

« هل لكم في أن تأكلوا ؟ »

فقلت :

« أشعر بجوع قاتل ! »

ووجدنا المكان يصلح للراحة ، فيه كثير من المغاور ،
فاخترنا مغارة صغيرة أجادت الطبيعة نحتها ، وكان الهواء يهب
بشدة ، فيكاد يطير أغصان رءوسنا ، وينزع منا ملابسنا ،
فهرولنا إلى المغارة ، فاجتمعنا فيها .

وجاءنا « بجاعص » بالطعام ووضعهُ أمامنا ، فالتفنا حوله ،
وأخذنا نأكل في شهية نادرة . . . وقالت « مس إيفانس » :

« أخشى أن نأتي على الزاد في وجبتين أو ثلاث ، إذا استمرت

شهيتنا على هذه الحال ! »

فابتسمت ، وقلت :

« أمامنا الأعشاب والجذور . . . لن نموت جوعاً على

نأى حال . . . »

وقال « الشيخ عاد ، :

« إن مؤوتنا تكفى عشرة أيام ، فهل تظنين أن الرحلة
تستوعب أكثر من ذلك ؟ ،

فأجابت :

« لا أظن ، ولكن هذا يتوقف على مبلغ نجاحنا . ،
فقال « مجاعص » وهو يحاول إخضاع لقمة كبيرة حشاً
بها فسمه :

« وإذا لم نغش على القصر في مدى عشرة أيام ؟ ،

فأجابت « مس إيقانس » في يقين وحزم :

« لن أعود قبل أن أجده هذا القصر ا ،

فوقف الرجل عن المصنغ ، ونظر إليها مدهوشا . فقلتُ
له وأنا أضحك :

« لا بأس ، ياسيد « مجاعص » ، إن طعم الأعشاب والجذور

لذيذ ، ويجب أن تُجرب به ولو مرة في حياتك ا ،

وانحني « مجاعص » على شاربته يفتله . . .

وبعد أن انتهينا من الأكل ، أخرج « الشيخ عاد » (الخريطة)

من جيبه ، ونشرها أمامه ، ثم أخذ يدرس معنا الطريق ، ويحدد

لنا الموقع الذى نحن فيه ، والبقعة التى نقصد إليها . .

وبعد أن شربنا القهوة ، قننا نستأنفُ السَّيرَ ، وما إن نحرَّ كُنَّا
حتى شملنا الصمت ، واحتوتنا تلك الموجةُ الرؤيائية التي
يَسْبَحُ بها الصوفيُّ في تأملاته . . . حقًّا لقد كان لهذا القصرِ
سلطانٌ روحيٌّ عجيبٌ على نفوسنا ، سلطانٌ خفيٌّ يجذبنا إليه
على الرغم مما يُحيط به من مشاقٍّ وأخطار .

وبدأنا ننحدر إلى أسفل ، إذ كان علينا أن نهبط إلى
الوادي المنبسط خلفَ الجبل ، ثم بدأ صعوداً جديداً إلى
قمةٍ أخرى . . . وهدأ الهواء ، فلم نكد نشعر به . وكانت
الظلالُ الباردة تكسو سفحَ الجبل ، وتحجب عنا قاعه .
ورأينا أن الهبوطَ أصعبُ من الصعود ، إذ يكاد المنحدرُ
يكون أفقيًّا ، إلى أنه كثيرُ التعارج والمزالق ، مملوءٌ بالحصاة
فكنا نسير في بطن شديد ، وحذر بالغ .

وألفيت البغلين تُنقلانِ حوافرهما على الصخور في
جُهد كبير ، وأخذتُ كتابُ الظلام تهجم علينا في إصرار ،
تريد أن تضربَ حولنا نطاقاً منيعاً لا نستطيع الفكَّاك منه ،
فاضطُرَّ الشيخ أن يُصدِرَ أمره بالوقوف . فوقفنا . . .
وسمعتُه يُهمهم :

« لا ندرك قاع الوادى إلا بعد ساعة ، وقد أصبح السير
شديد الحُسْر ، فلننتظر قليلا .
فقلت :

« وعَلامَ الانتظار ؟ »

فلم يُجِبْنى ، بل كان منهما ينظر في السماء مدققاً . . .
وبعد لحظة قال :

« أبشروا ، فقد جاءنا الفَرَج ! »

وما كاد يتم قوله ، حتى بدأت الحُلْسُكَةُ تَنْقَشِعُ ،
وأنبعث ضوء أحمر في جوانب السماء . وجلسنا على الصخور ونحن
نراقب هذا الضوء الجميل يَغْبِثُ بالليل ويداعبه ، مُسْتَرْقِا خَطَامَ
في خِفَّة . ولَسَبْنَا كذلك ، وعيوننا متطلعة إلى السماء ،
لا تتفوه بكلمة ، ماخوذين بروعة الطبيعة ، منتظرين بُزُوغَ ذلك
الساحر العظيم !

« وكنا لا نسمع في ذلك الصمت الرازح ، إلا صوت الهوام
المحتبس في الوادى ، فكأنه أنينُ شاكٍ أو أسير . . . حتى
البَّظَلَتَانِ لقد اشتركتا معنا في الإصغاء والسكون ، فلم تصدر

هنهما حركة أو شَحِيحٌ ، بل وقفنا جامدتين كأنهما تحت تأثير
قوة مغناطيسية .

وأخيراً ظهر القمر يَغْبُرُ قَسَمَ الجبال في جلال وانتصار ،
يسبح في هدوء غريب ، ويتسم حوله للأكوان معتزلاً بجباله
وقوته . وإذا بالوادي يَتَفَتَّحُ عن جوانبه ، ويتكشف عن
أسراره . وانتشرت همهمة غريبة تكاد تخطئها الأذن .
فهل كانت أصوات بعض الحشرات قد خرجت من جُحورها
مُرَحِّبة ؟ أم هي أصوات كائنات غير منظورة جاءت تشاركنا
في استقبال ضيفنا الكبير ؟

لقد شاهدتُ بزوغَ القمر كثيراً ، وأعجبتُ به كثيراً ،
ولكنني لم أره قطُّ على هذه الحالة التي رأيته عليها في ذلك
الوقت ، ولم أشعر نحوه بذلك الشعور الذي أحسسته آنسَدي ،
خَفَضْتُ رأسي وأنا أرتعش !

ونبني صوتُ الشيخ عاد ، وهو يقول :

« هيا... فلنتابع المسير . »

ونهمضنا ، فاستأنفنا سيرنا في بطم وحذر ، كما كنا من

قبل ، ومازلنا كذلك حتى بلغنا بطن الوادي . واختار لنا

« الشيخ عاد ، مكانا يصلح للسبت ، وأمر « مجاعص ، أن
يُنْصَبَ لَنَا الخِيْمَةُ ، وأن يُرْمَحَ البَغْلَةُ بما تحملُ من ثِقَلِ
الْأَمْتَةِ وَالزَّادِ .

وتطوَّعْنَا جميعاً لمساعدة « مجاعص ، فانزَلْنَا الْأَحْمَالَ عَنْ
الدَّابَةِ ، وبدأنا نَدُقُّ الْأَوْتَادَ للخِيْمَةِ ، ونَهَيْتُ مُخَادِعَنَا . ورَأَيْتُ
« مجاعص ، قد تركَ للبَغْلَتَيْنِ الحَبْلَ عَلَى الْغَارِبِ ، فانْطَلَقَتَا
تَعْدُوَانِ ، وهما تَقْفِزانِ وَتَشْحَجَانِ ، أَشَدَّ ما تَكُونَانِ
مَرَّحًا وَنَشَاطًا !

والتفتُ إِلَى « مجاعص ، وقلتُ لَهُ :

« أَلَا تَخْشَى عَلَى الْبَغْلَتَيْنِ أَنْ تَنْهَرُ بَا أَوْ تَهْضِلَا الطَّرِيقَ ؟
فَضَحَكَ ضَحْكَةً عَرِيضَةً ، وَقَالَ :

« أَنْتِ لَا تَعْرِفِ طِبَائِعَ هَذَا الْحَيَوَانِ ، إِنَّهُ مَضْرِبُ الْمَشْكِ فِي
الْوَفَاءِ وَقُوَّةِ الْغَرِيزَةِ . . . وَلَوْ ضَلَلْنَا نَحْنُ طَرِيقَنَا ، لَمَا وَجَدْنَا
خَيْرًا مِنْهُ دَلِيلًا يَرْتَادُ لَنَا السَّبِيلَ إِلَى الْإِيَابِ . عَلَى أَنْكُمْ مَا دُمْتُمْ
مَعِيَ ، لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ . أَنَا ابْنُ الْجَبَلِ ، لَقَدْ رُبِّيتُ
بَيْنَ أَحْضَانِهِ ، وَكَبُرَتْ بَيْنَ وَدْيَانِهِ وَقِمَمِهِ . أَعْرِفُ صَخُورَهُ
حَجَرًا حَجَرًا ، وَعَيُونَهُ نَبْعًا نَبْعًا ! »

وَنَدِمْتُ عَلَى تَهْيِيدِ السَّيْلِ لثَرْتَةِ «مَجَاعَصَ» وَانْهَمَكْتُ
فِي عَمَلِي أَضْرِبُ وَتِدَ الْخِيْمَةِ بِمَجَرِّ كَبِيرٍ ، وَأَنَا أَدْعُو «مَسَ»
إِيقَانَسَ ، فِي صَوْتِ عَالٍ أَنْ تَحْذَوْ وَحَذَوْى .

وَأَنْسَمَمْنَا تَهِيَّةَ الْمَكَانِ فِي وَقْتٍ قَلِيلٍ ، وَجَلَسْنَا أَمَامَ الْخِيْمَةِ
تَأَمَّلُ النَّارَ الَّتِي أَشْعَلْنَاهَا لِلتَّدْفَةِ وَإِنْضَاجِ الطَّعَامِ . وَبَدَأَ
«الشَّيْخُ عَادَ» يَحْدِثُنَا حَدِيثَهُ الطَّرِيفَ .

وَالْتَفَتُّ نَحْوَ صَدِيقِيَّ . وَقُلْتُ لَهُمَا :

إِنْ أُنَامَ اللَّيْلَةَ فِي الْخِيْمَةِ . إِنْ الْقَمَرَ يَعْزِرُنِي بِأَنْ أَقْرُبَ
الْأَرْضَ تَحْتَ ضِيَاءِهِ . يَكْفِينِي أَنْ أَخْذَ مَعِيَ غِطَاءً وَاحِدًا
أَتَدَثَّرُ بِهِ !

فَأَقْرَأَنِي عَلَى رَأْيِي ، فَقَمْتُ لِأَخْذِ الْغِطَاءِ مِنَ الْخِيْمَةِ ، فَلَمَّا
صَرْتُ فِي دَاخِلِهَا ، سَمِعْتُ «مَسَ» إِيْقَانَسَ ، وَ«الشَّيْخَ عَادَ» يَطْلُبَانِ
مَنِي أَنْ آتِيَ لَهُمَا بِغِطَاتِهِمَا أَيْضًا ، خَمَلْتُ لَهُمَا مَا أَرَادَا .

وَمَضَيْتُ أَلْفُ نَفْسٍ بِغِطَائِي ، وَتَمَدَّدْتُ عَلَى الْأَرْضِ
وَوَجْهِي نَحْوَ الْقَمَرِ ، أَرِيدُ أَنْ أَشْبَعَ نَاضِرِيَّ بِنُورِهِ اللَّائِلَاءِ .
وَجَعَلْتُ أَصْنِفِي إِلَى حَدِيثِ «الشَّيْخِ عَادَ» وَمَا عَنَّمْتُ أَنْ
غَشِيَنِي النَّجَاسُ !

... وفتحتُ عيني ، فطالعتني أشعةُ الشمس ، وهي تطبّع
على جبينِ الكونِ قبلةَ الصُّباح . فالتفتُ حولى ، فوقع بصرى
على « مس إيقانس » ، وهي متمددةٌ على باب الخيمة . فقصدتُ
نالها ، وجلستُ بالقُرْبِ من رأسها أتأملُها .
وأحسستُ بغتةً رَجْفَةً تسرى في جسدى ، فهل كانت من
خسمةٍ باردة هبّتْ على وجهى ؟ أم كان من جعبها شيئاً آخرَ
لا أعرفه ؟

وتحركتْ « مس إيقانس » ، وبدأتْ أهدأُها تحتلج ، ثم
فتحتْ عينيها فى تَلْشِينٍ وتمهلٍ ، فما إن رأتنى حتى قالت فى شيء
من الاتِّزاجِ :
ماذا ؟

— جئت لأوقظك !

فابتسمتْ ، وهي تقول :

« أشكر لك ... »

وقامتْ متباطئةً ، وهي تجمع غطاءها ، وتُسَوِّى ملابسها
ثم قالت :

« شاهدت رؤيا غريبة ... رأيتُنِي على ظهر باخرة تمخر
المحيطَ الشمالى ، وإذا بجبل من الثلج قد ظهر لنا ، فدَهَمَتْنا

موجةٌ برّْدٍ عاصف ، كادت تُضَرِّفنا عن الخطر المُلمّ الذي
يُهدِّدُنا

وابتسمت ابتسامةً بهيجة !

واستيقظ « الشيخ عاد » على حديثنا ، فقام نشيطاً على
وجهه بشاشة . . .

وسرعانَ ما أقبل « مجاعص » وهو يتثائب ، ويضرب الهواءَ
بذراعينه . . .
وقدنا نسير .

ولما رأى « الشيخ عاد » إصرارنا على التَّرجُّل ، وعلى ترك
البغلة لا يركبها أحد ، أمر « مجاعص » أن يَقسِمَ الأحمالَ بين
البغلتين .

وسرنا نُصعِّدُ في سَفْحِ الجبل ، وكان الطريق طويلاً على
وُجُوهنا ، ولكننا قطعناه منشرحةً صدورنا نَسْتَعْنِي . ولم نشأ
أن نجلسَ لنستريح ونطعم ، بل تناولنا غداءنا ونحن سائرون .
فقد امتلكتنا حماسةٌ غريبة كحاسة الجندِ الإلَّه في حوْمَةِ
الوَعْي . فلم نعرفَ للتَّعب معنى ، ولم يشغل فكرنا إلا شاغلُ
واحد ، هو الوصولُ إلى السِّقْمَةِ في أقرب وقتٍ مستطاع .

وقد اضطررنا أن نأكل مرتين قبل أن نصل إلى غايتنا .
ومما يستدعي العجب أننا لم نسأل مرة : في أى وقت نحن ؟
ولم نُخرج أحدٌ منا ساعةً للنظر فيها . وكانت خطواتنا وئيدةً
ولكنها متزنة . وكثيراً ما دُرنا حولَ أما كنْ نبحث فيها عن خير
طريق نسلُكه .

وأخيراً وصلنا ، وإذا بالشمس تميل للغروب ، ووقفنا على
القِمَّة ، فالفيناها قمةً عظيمةً يَكُلُّ الطَّرْفُ عن إدراك منتهائها .
ولبثنا مَلِيحاً ، نريد أن تتبين : في أىِّ جهةٍ نحن منها ؟ وأن نمتعَ
النظرَ بِخِلَافَةِ الطبيعة من حولنا . ولكن الهواءَ كان شديداً
قاسياً يَهْبُ علينا في إلحاح ، فكأنه يريد أن يحملنا على ساعديه
الجبارين ، ويُلقي بنا على الصخور في مسارِبِ الهاوية ، عقاباً لنا
على اقتحام مملكته النائية . ورأينا في عرضِ القمة بعضَ
الفَجَوَات ، فقصدنا إلى إحدها ، وحططنا رحالنا فيها . وبدأ
« مجاعص » يُجهِّزُ لنا القهوة ، ويملأ لنا « الغلايين » بالطباق .
وجلسْتُ مترَبِّعاً ، وأنا مستندٌ بظهرى إلى صخرة خَشْنة .
وبدأت أشربُ القهوة وأدخن « الغليون » مُتَمِصَ العينين ،
مستمتعاً براحة لم أذُقْ في حياتى أطيبَ منها .

لقد كان علينا أن نسير على هذه القمة المستطيلة بصخورها
الناثئة ومنزلقها الممليكة ، نتسلّع إلى الوادى الآخر — ذلك
المكان المجهول المفعم بالأسرار — نكشف فيه موضع القصر ،
فهو قائم هناك فى مخبئه السحري ، يسخر من الإنسان
والزمن معاً .

وأمضينا ليلتنا فى الفجوة ، بعد أن غطيناها بالخيمة ،
والتحفنا الأغطية الغليظة ، وأشعلنا النار طول الليل . وعند
الصباح واصلنا مسيرنا ، بعد أن أخرج كل منا منظاره
المكبر . وكنا كلها سرنا بضع خطوات توقفتنا لحظة ، وأخذنا
نتسلّع إلى الوادى مدققين فاحصين . وظللنا نمشى فى حذر
لمى حذر ، لكثرة ما يعترضنا من عقبات الطريق فى كل خطوة ،
وما نراه من المهاوى التى تخف بنا من كل جانب . ولم يكن
للجواء يُعفينا من عبثه بنا ، ودفعه لنا ، وجذب به إيانا هنا
وهناك . . . وقد تمر علينا سحابة من السحب ، فسلقنا فى
يخارها الرطب تسد علينا مذهب الطريق ، وإذا بكل شيء
يستخفى ، فنقف تبادل النكات الفكاهة ، حتى تنقشع السحابة
الراحلة . . . وكان يخيل إلى فى مسيرى أن حدائق قد تمزق إرباً
إرباً ، وأن قدمي قد بدأتا تلمسان الصخر وتدميانه .

أمضينا يوماً كله جَهداً وإعياء ، ولكننا لم نعثر فيه على شيء . وإذا بالقمة تستطيل أمامنا أكثر من ذي قبل ، وإذا بنا أمام مجهودٍ جبار علينا أن نتممه في صبر وجَلد !
وفي اليوم التالي ازدادَ تَوَعُّرُ الطريق ، ووقفنا حيارى أمام مَعْبَرٍ ليس من سبيلٍ لمواصلة السير على غيره ... فقالت « مس إيفانس » :

« أذكر أن الراعي الذي اشترك في بعثة الكشف الأولى ،
قد حدثني في شأن هذا الممر » ،
فأجابها « الشيخ عاد » :

« أمّا بكدة أن حديثه يعني هذا الممر نفسه ؟ إن كثيراً من
الممرّات الخطيرة يملأ هذه المنطقة . »
فهمّهمّت « مس إيفانس » :
« لا أدري على وجه التحقيق . »

وجعل « الشيخ عاد » ينظر إلى الممر بعينه الفاحصة ، ثم
يُنْقَلُ بصره في البغلّتين . وأطال التفكير ، ثم قال :
« لا حيلة لنا يا رفاقي في اصطحاب الدابتين ! »
فتقدم « مجاعص » واندفع يقول :

« إن هلا كهما محقق ! »

فقال « الشيخ عاد » :

وماذا ترتي أن نفعل ؟

— أرى أن تتركوهما في عهدتي ، فأتكفل لكم بإعادتهما
صالمتين إلى مقرهما .

فنظرتُ إلى « الشيخ عاد » و « مس إيفانس » ونظرا إلى .

وابتسم « الشيخ عاد » لـ « مجاعص » وهو يقول :

« كلا . . . لا نحب أن نموت وحدهنا . . . تشجع » .

وتعال معنا ! »

فاهتز شارب « مجاعص » وتغضن وجهه ، وقال :

« ماذا ؟ أخطرُ ببالكم أنني أتردد . . . لولا أنني مشفق

على هاتين البغلتين . . . »

فقال « الشيخ عاد » :

« اتركِ البغلتين وشأنهما . إنهما لا تعدمان مرعَى ، وهما في

غير حاجة إلى دليل ! »

فقال « مجاعص » وهو يزفرُ :

« هذا ما أقوله وأكرره ، ولكنني ظننتكم على رأي غير رأيي ،

واخترنا من أحمال البغلتين ما هو ضروري لنا ، فوزعناه .
علينا نحن الرجال ، وبدأنا نجتاز الممر ، يستعين بعضنا ببعض ،
بعد أن شددنا أوساطنا بالحبال . ونجحنا في عبوره ، واتضحت
لنا صعوبة مهمتنا في أقصى مظاهرها . ولكن كلما عظمت
الصعاب وكثرت ، قويت عزائمنا ، وتجدد نشاطنا ، واشتدت
رغبتنا في اكتشاف ذلك الأثر العجيب . . .

وأمضينا يومين معاً نجوب القمّة ، وقد تغيرت بنا الحال
من سير على الصخور وحافات الهاوى ، إلى جهدٍ شاقٍ في
تسليم الجبال واقتحام معابرها المخوفة . . .
والقصر ؟ أين هو ؟ لم نَرَ منه أثراً بعد . . . أتكون القصة
خرافة ؟ وتكون الحية نصيبنا ؟

وبعد يومين آخرين ، تملك قلبي اليأس ، فنظرت إلى
« مس إيشانس » نظرة تحمل ما أكن من معنى ، دون أن
أتكلم . . . فأدركت ما يجول بخاطري ، ووقفت أمامي .

وقفةً كبرياءً وتجلى . وقالت وحدقتها تلمعان في وهج الشمس :

« القصرُ موجودٌ ، وسنتدى إليه حتماً ! »

ومرَّ بعد ذلك يومان أيضاً ، وأوشك الزادُ أن ينفدَ : على

الرغم من تقتيرنا فيما نأكل منه . واعتري « مجاعص » وجوم

غريب ، وغشيته كآبة صماء ، ولم يسعدُ يسمعنا مبالغاته

المستفيضة في وصف شجاعته ، والإدلال بخبرته . وتراخى شارباه ،

وانحنَت قامته . وكان إذا صادفته في الطريق عقبةٌ كؤود ،

طمَحَ يبصره إلى السماء ، وصرخَ من أعماق قلبه :

« الله يخرّب القصر ، ويحرق اللى بناه ! »

وبعد أن جاهدنا جهاداً مضياً في ارتقاء إحدى القِمَمِ

العالية جلستُ مع القوم بجوار غار صغير أستريح ، وجعلتُ

أفكر في هذه المغامرة الغريبة التي أصرُّ على إتمامها ، راضياً

بأن أهلك في هذه البقعة المرهوبة ، وكيف يقابلُ الأهلُ

والأصدقاء في مصرَ خبرَ فقْداني ، فإذا عرفوا أين متُّ فلا

أدرى بماذا يؤوّلون ذلك الجنونَ الذي استحوذَ عليَّ في البحث

عن « قصر مسحور » في أحضان الجبال !

وحدث أن تناولتُ منظاري ، فوضعتُه على عينيّ مداعباً ،
وانطلقتُ أضحك من نفسي ومن حالي . فإذا به « مس إيقانس »
تقترب مني ، وتسألني :

« أوجدت شيئاً ؟ »

فقلتُ لها هازلاً :

« طبعاً . وجدتُ قصرَك المُسَيِّفَ ! »

ووقع بصرى في تلك اللحظة على مكان في سَفْتَح الجبل ،
لا يختلف عن غيره إلا في بعض كَبُجَوات على سطحه . وشعرتُ
برجفة تتمشّي في جسدي ، وكانت « مس إيقانس » بلا منظار ،
إذ كان قد تحطم على البصخور صباح اليوم . فدفعت إليها منظاري .
وقلت لها :

« انظري ، انظري ! »

فأخذته وجعلت تستشرفُ المكانَ ، ثم سمعتها تصرخ مناديةً
« الشيخَ عادَ » ، وأشارت إلى الموقع ، فأخرجَ منظاره ، وبدأ
يفحصه بمجامع عينه ، ثم سمعته يُغمغم :

« أمكن هذا ؟ أمكن ؟ »

ثم التفتَ بعضنا إلى بعض ضامتين ، والحيرة قلبحُ بها غيونا !

وأخيراً قالت « مس إيفانس » :

« إن منظره ينطبق على ما لدينا من معلومات ، كهلوا . . .
إن المسافة بيننا وبينه لا تقلُّ عن نصف يوم . . .
وتورَّد وجهُها ، وأمسكتْ يدي ، وهزَّتْها في حماس !
والتفت إلينا « مجاعص » وهو فاغرٌ فاه ، وقال :
« أين (المدعوق) القصر ؟ أين ؟ إني لا أرى شيئاً . . .
فناولته المنظار ، وأشارتُ إلى الفجوات ، قائلاً له :
« هنالك . . . انظر ! »

وجعل يُجِيلُ بصره وقتاً في الجهة التي عينتها له ، ثم أعاد
إلى المنظار في يأس ، وهو يُدَمِّدُ :
« الجنون فنون يا سيدي ! »

وعدنا نسير ، فإذا بنا نقفزُ قفزاً ، ويحُثُّ بعضنا بعضاً على
السرعة ، إلا « مجاعص » ، فلقد كان يجري خلفنا كما يتبعُ
الكلبُ صاحبه ، عليه أن يُطِيعَ ، وليس له أن يفهمَ إلى
أين يساق !

. . . وبعد أن قطعنا شوطاً فسيحاً ، وقفنا نستوضح المكانَ
في تشوُّفٍ ، وقلتُ لـ « لشيخ عاد » :

« مارأيك ؟ أنظن ؟ : ... »

فأجابني وهو يتسم ابتسامته الهادئة :

« أظن أن الطبيعة ليست هي وحدها التي نحتت هذه
الفجوات ! »

وسرنا ، فبلغنا أكثر من نصف المسافة ، وكنت أضع منظاري
على عيني بين فترة وأخرى ، فتبدو هذه الفجوات وقد اتخذت
أشكالَ عيونٍ خيفة . وخُيِّلَ إليّ أني أسمعها تسائل نفسها في
غضب : ما سرُّ وجودنا في هذا المكان ؟

ولاحظتُ في أثناء السير أن قدمي كانتا تسوَّخان في الأرض
شيئاً ما . . . فوقفتُ الرُّكب ، وقلت لـ « مس إيفانس »
و « الشيخ عاد » :

« إن طبيعة الأرض قد تغيرت . فقد أصبحت أشدَّ ليناً
مما مضى . مارأيكما ؟ »

وما كنت أتمُّ جملي ، حتى سمعنا صراخاً حاداً قد تعالى في
الجو فجأة ، مصحوباً بدويٍّ مكتوم . فالتفتنا خلفنا مذعورين ،
فإذا بقطعةٍ من الجبل تنهار مثيرةً معها غباراً أزرق كالحما ، وانتشر
الغبار حولنا فجأة ، فسدَّ دوتنا المسالك . فوقفنا حيثُ كنّا ، وقد

تماسكنا بشدة ، منتظرين بين فينة وأخرى قضاء الله فينا .
وشعرنا باختناق ، واندفعنا نَسْعُلُ ، فكأننا نلفظ آخريات
أنفاسنا . . .

وانقطع دويُّ الانهيار ، ولكنَّ صُراخَ الاستغاثة كان
يتعالى في الحين بعد الحين ، تتجاوب بصداه الحزين اليأس أكنافُ
الجليل . . . وسمعت « الشيخ عاد » يهْمِسُ :
« المسكين ! »

وبدأ الغبار ينقشع ، فكأننا خرجنا من الجحيم ، وهبت
علينا ريح قوية من الشمال ، فأخذت تطارد فلولا ذلك الغبار .
ورأينا الوادي يعود إلى هيئته الأصلية تحت أشعة القمر الواهنة .
وانثنى « الشيخ عاد » يُحِدُّ نظره فيما تحت أقدامنا من المهاوى .
وسمعنا صوتاً جيبساً ، يقول :

« الحقوني . . . في عرضكم أنقذوني ! . . . الجبل كله رازح
فوق صدرى . . . لا تتركوني ! »

وأخذنا نتشاور : أنترك المسكين يقضى تحت الركام ، أم نخفُّ
إليه محاولين إنقاذه ، وفي ذلك تعريضنا لأشدَّ الأخطار ؟
ولم يمض وقت طويل ، حتى رأيت « الشيخ عاد » قد خلع
كوفيته وصداره ، وأخذ يتمنطق بالجليل ، وهو يقول :

« سأنزل وحدي ، وعليكما إِدْلاءُ الحبل ومراقبتى . . . »
ونظرنا إليه فى وَجَل ، وقد مضى لم يَنْبِسْ بحرف ، وبدأ
يهيِّط . . .

وانهمكتُ و « مس إيقانس » فى عملنا نراقب الرجل ،
ممسكينَ بالحبل ، متيقِّظينَ للمفاجآت . وكان « الشيخ عاد ،
يَنْقُلُ خُطاه فى مهارةٍ وحِذْقٍ ، فعَجِبْنَا له يُحَسِّنُ ذلكَ على
الرغم من بدائته ، فكأنه (بهلوان) حاذقٌ بمن يَعْرِضُونَ أَلَاعِبَهُمْ
على المسارح .

وعَمَّ الوادى الصمتُ العميقُ ، فلم نكن نسمعُ إلا خَفَقَ
خطوات الشيخ ، وهى تَفْسَحُ لَهَا طريقاً بين مدارج الصخور .
وخَيْلَ إِلَى أنى سمعت صوتاً غريباً يشبه الهمهمة ، فالتفتُ إلى
« مس إيقانس » أسألتها بنظري ، فقالت خافئةً الصوت :
« أَيْكون صَفيرَ الرياح على القِمة ، أم . . . ؟ »

وتشبَّثتُ بى . . .

فأردت أن أرفعَ إلى القِمةِ بصرى ، ولكننى لم أَجْسُرْ .
ووصلَ « الشيخ عياد » الى مكان « مجاعص » وطَفِقَ يرفع
الحجارة ، وكانت مهمةٌ غيرَ شاقَّةٍ ، فبدأ على الفور رأس

« مجاعص » ، ثم ظهر جسمه الفحل . وما إن رأى الشيخ
أمامه ، حتى هوى على يديه يقبلهما ويُسندُهما بدموعه ،
وهو يردد :

« في عرضك ، يامعلم ، لا تتركني . ولتسعد من حيث أتينا ! »
فقاطعه الشيخ في همس :

« صمتاً . . . لا تغل صوتك ! »

فالتق « مجاعص » بوجهه في صدر الشيخ ، كما يحتضن الطفل
في صدر أبيه . وتركه « الشيخ عاد » حتى عاوده بعض الهدوء ،
فقال له :

« إن أمامك مُرتقى صعباً ، عليك أن تغلّوه ، ولكن خبرني :
(أجريح أنت ؟)

— جسمي كله يشخب دماً ، وقد تحطمت عظام رأسي !
فتفحصه الشيخ على عجّل ، ثم قال :

« من حسن حظك أنك انزلت على أرض لينة . . . أما
هذه الجروح فليست بذات بال ! »

ثم أخرج من صدره زجاجة صغيرة ، وأمر « مجاعص » ،
أن يشرب ما فيها ، فأذعن للأمر ، وأفرغها دفعة واحدة في
جوفه ، وقال « الشيخ عاد » :

«والآن هيا . . .

— إلى أين !

— إلى فوق ، حيث ينتظرنا صاحبانا . . .

وأخذا يصعدان في المرتقى العسير : الشيخ من أمام ،
« ومجامعص » من خلفه ، يتبعه كظلّه ، وهو قابض على طرف
الحبل . وانتظرنا طويلا ، حتى وصلا . فما إن دنا « مجامعص »
مننا ، حتى رأيناه قد تساقط على الأرض فاقد الحركة ، فأسرعنا
نُسْعِفُه . أما « الشيخ عاد » فوقف ينهَج ، وهو يمسحُ عن
وجهه العرق .

وبعد هنيهة رأيت الشيخ يتلَفَّتُ حوله ، فوقع اختياره على
شبهه جُحْر ، فأصدر أمره أن نذهب إليه . وكان الظلام قد
عُشِيْنَا شَيْئًا ، فدخلنا الجُحْرَ كأننا قطيع من الحيوان يأوى
إلى حظيرته . . . واختار كلُّ منا مكانه . وجلست « مس إيقانس »
على مقربة مني ، وهينس « الشيخ عاد » :

سنقضي ليلتنا هنا . . .

وتألبت علينا الظُّلَّةُ ، ولفتنا صمت مرهوب . وازدادت
الحلْكة ، حتى لم يعد يرى أحدنا من حوله . وطال صمتنا .

وخيل إلى أني وحيد في هذه المغارة المنقطعة ، وتطأ من رأسي كل ما عقلتُه وفهمتُه من البراهين التي تنفي وجود السحر والخرافات . وحاصرتني الهواجس من كل صوب ، وامتلا رأسي بمنظر صبيانية مزعجة . فجعلت أفكر في أجناس المخلوقات الغريبة التي تسكن هذه الشُعَاب ، وما أعدته لنا من ألوان الفتك والإيذاء . . .

وتحركت في مقعدي ، وسعلت ، فجأوبني سؤال الصَّحَاب . وأحسست يد « مس إيفانس » تتلَّسُّ يدي ، فأخذتها في راحتي . وأطبقتُ عليها أناملي . . . ثم رأينا الماوى وقد بدأت تنيره أشعة القمر ، فتهدتُ طويلا ، وطفئتُ بعيني ، فألفيت « مس إيفانس » منكشئةً بجوارى ، تدور برأسها الدقيق حولها ، وعيناها لامعتان كما تلمع الماسة المصقولة . « والشيخ عاد ، ينظر أمامه نظراً تائهاً ، مسترسلا في أحلامه . أما « مجاعص » فقد كَوَّمَ نفسه ، وراح في سُبات عميق !

وطال صمتنا ، ورأيت فصِّي الماس ، وقد بدأ يدب إليهما الفتور . ومال الرأس الدقيق على كتفي فتوسَّده . وغلقتُ القمر في هذه اللحظة سحابة كثيفة أعادت الظلمة إلى الماوى . . .

ورفعتُ يَدَ «مس إيفانس» إلى فمي في تباطؤ وتراخ...
ثم أغمضت عيني، وجعلت أستقبل أحلامي المؤنسة في ذلك
الوكر الموحش، الذي تربض الشياطين حوله، ويكشر فيه
ظلمت عن أنيابه!

وأيقظنا الشيخ عاد، قبيل الفجر، وهو يقول:
«هيا يا صحابي... نريد دخول القصر قبل عود الظلام.
هولا ندرى ماذا ينتظرنا من مفاجآت الطريق!»

وتناولنا طعامنا المتواضع على كَجَل ، وأخذنا نسير . وكنا
نمشي ببطء ، حذرين ، نخشى انخساف الأرض تحتنا . ولكننا
قد 'نضطر' — طوعاً لمشورة 'الشيخ عاد' ، — أن نجتاز بعض
الأمكنة وثباً وعدواً . وقد نختار طريقاً يلوح لنا أنه بالغ 'بنا'
الغاية ، فنقطع فيه شوطاً فسيحاً ، ثم يتضح لنا أنه طريق عسير ،
فنرجع على أعقابنا ، ونتوخى طريقاً سواه .

وكذلك لم تهدأ لنا حركة ، حتى أوفت الساعة على الثانية .
بعد الظهر ، فجلسنا لتناول بعض اللحم القديد ، وننعم بقسط
من الراحة . ثم قنا بعد قليل تتابع السير .

وكنا كلما اقتربنا من القصر ، اتسعت 'فجواته' ، وازدادت
ظلاماً . وأشارت إلى فجوة أكثر اتساعاً من غيرها . وقلت :

« ألا يكون هذا موضع الباب ؟ »

فأجابني 'الشيخ عاد' :

« يلوح لي ذلك . . . »

واتجهنا في سيرنا نحو تلك الفجوة ، وكان علينا أن نصعدَ إليها في طريقٍ خيَّلَ إلىَّ أن أحداً من قبلنا لم يسلكه .
والحق أنه لم يكن طريقاً بالمعنى المألوف ، فلقد كنا نسير في مكانٍ وعُرْذَى سطحٍ منحدرٍ مختلفٍ التواء ، حجره أملسٌ ، ينزلق عليه الحذاء انزلاقه على رغوات الصابون ، فكما خطونا خطوةً مهَّدنا المكان لمواقع أقدامنا . وكان عملاً شاقاً مضنياً ، بيد أننا جاهدنا فيه جهادَ المستميت . وكنا صامتين لا يُسمَعُ لنا إلا خفقُ الأقدام وهي تضرب في الصخر العنيد ، وإلا زفراتٌ « مجاعص » ، وأنينه فقال التعب مني كلٌّ منال ، حتى قام في يقيني أنني سأهوي حتماً ، وأن مشواي لا بدَّ بطنُ الوادي !

وفي النهاية وصلنا ، فإذا نحن أمامَ قُوْهة كقُوْهة المغاور .
لا تستطيع العينُ اقتحامَ ظلمتها .

واستندنا إلى الجنادل ، مبهوْزِي الأَنفاس . ورأيتُ « الشيخ عاد » يتهاى لدخول القُوْهة ، فصرختُ :

« سنأتي معك . . . تمهل ! »

فالتفت إليَّ ، وقال :

— ٨٨ —

« كلاً . . . انتظروا ، فلن أُغيبَ طويلاً ،
وتسوارى شبحه في الظلام . . . وأسرعت دقات قلبي . . .
وعاد الشيخ يقول :
إن المكان مسدود ، لا منفذ له .
— إذا . . . —

— هيا إلى الفسوة الثانية .
واستأنفنا سيرنا كما كنا على الصخور النائية المُلسِ ،
هو استبدَّ بي ضيق شديد ، وهبت في نفسي ثورة صامتة ، أتساءل :
إهالي ولهذه المغامرة الحقاء ؟

ووقفنا لنستريح ، فاستندنا ظهورنا إلى الحجارة المسنونة
الأطراف . وأطبقتُ جفني ، وشعرت بأن المتاعب تطحن
بجسمي طحناً . ألا يمكنني أن أختلس بضع لحظات أستمتع
بقيتها بنوم خاطف ؟ أراهن الكون كله على أنني أستطيع أن
الأنام واقفاً ، مُسنداً رأسي إلى رماح الصخور ، وتحت قدمي
هذه الهوة السحيقة . . . ومن يمنعني من ذلك ؟ فلا فَعَلَ .
وسرَّعان ما سمعتُ صوت « الشيخ عاد ، يقول :
« هَلِّسُوا ، »

ففتحتُ عينيَّ حائقاً ، واستسلمت للبقاير . وواصلنا السير ،
وبعدَ لا شيءٍ بلغنا الفوهة ، فدخلنا فيها ، وتقدمنا الشيخ ،
فرايته قد أخرج شمعةً من جيبه فأشعلها ، ومشى محاذراً وقد
حني هامته ، وانكمش متلصصاً ، كأنه مقدم على جريمة . فشينا
على أثره منكمشين كذلك . وأخرجتُ مسدسي ، وقد أرهفتُ
أذنيَّ لأضعف حركة . واتضح لي أننا نسير في دهليز رطب ،
منقور في قلب الجبل . ولم يفه أحدنا بكلمة . وبدأ الدهليز
يلتوى بعد أن كان مستقيماً ، وطال سيرنا والطريق ما يزال في
التواءه وإظلامه . ثم رأينا يتسع شيئاً ويستنير . وأخيراً ظهر
أمامنا منفذ يغمره وضح النهار ، وغمغتُ قائلاً :

« لقد وصلنا إلى داخل القصر . فلنستعد ! »

وسرنا حتى انتهينا إلى المنفذ ، فإذا بنا نطيلُ على الوادي
الذي تركناه خلفنا ، وإذا الفوهة التي ظننّاها غايةَ المرحلة ،
هي بعينها الفوهة التي دخلنا منها !

والتفت بعضنا إلى بعض متسائلين . . . ورأينا دجاجاً ،
يجلس على الأرض . ، وقد انفجر في ضحكةٍ طويلة ، ثم قال :
« حقا لقد وصلنا ! »

فأجابه « الشيخ عاد ، في حزم وعزم :

« سنصل أيها الغبي ، وسترى . . . »

وجلسنا على رأس المدخل فترة ، ثم قمنا نستكشف
الفوهة الثالثة ، فوجدناها بلا منفذ ، ولكنها كانت فسيحة
كأنها قاعة لا يُغوزها إلا الأثاث . فقال « الشيخ عاد ، وقد
تجلى اليأس في نظرتي :

« هنا سنمضي الليلة ! »

وتجهَّس وجه « مس إيفانس » ولم تشطِّق بكلمة ، وأخذنا
نعدُّ المخادع . وبعد قليل أطفأ « الشيخ عاد » الشمعة .

وبينا أنا قد غلبني النوم ، إذ شعرتُ يدي تهزُّني بلطف .
ولاذَّ بي أمام « الشيخ عاد » ، فبادرته بقولي :
ماذا هناك ؟ أخطرُ أخذ قَبْنا ؟

— كلا . ولكن يلوح لي أني عرفت الباب . .

— الباب ؟

— تعالَ معي !

ونفضتُ بقايا النوم عن عيَني ، وقيمتُ معه ، فقادني إلى
الركن الأيمن من الحجرة ، وأشار إلى صخرة من الحائط ، وقال :
« ادفعها بيدك قليلا . . . »

فدفعتها ، فإذا هي تلين بعض اللين تحت يدي . فابتسمي .
« الشيخ عاد ، وقال :

لقد قضيتُ الوقتَ منذ أخذكم النوم وأنا أخص عن جدار
المغارة ، حتى عثرتُ على هذه الصخرة ، فتولاني الشكُّ في أمرها
لبروزها عن مستوى الجدار ، فأخذتُ أحفر حولها ، حتى تبين
لي أنها مستقلة ، ليست جزءاً من الحائط !

— والآن ماذا ترى ؟

— نتمُّ العملَ معاً ، حتى يتبينَ لنا صدقُ ظننا . . .

وناولني قدوماً وإزميلاً ، وأخذ مثلثهما ، وجعلنا نعملُ
فتعمقنا في الحفر حول الصخرة ، مجتهدَيْن في إخراجها من مكانها .
وأيقظنا « مجاعص » ، ليساعدنا في عملنا ، ولكنه لم يفعل شيئاً
يستحقُّ الذِّكر ، بل لقد كان تشاؤمُهُ وتمطيه المستمرُّ يعطلنا ، حتى
خشينا أن تصلَ إلينا عدواهُ !

ولما حمى وطيسُ الدقِّ ، استيقظتُ « مس إيفانس »
فأقبلتُ إلينا ، وفهمتُ كلَّ شيء دون أن تسألنا ، فلبع وجهها
بالبشر والارتياح !

وبعدُ جهدٌ جهيد استطعنا انتزاعَ الصخرة ، فظهرت كوةٌ

بخلفها سرداب ، فنظر « الشيخ عاد » منها ، ونور الشمعة الشحيح
يضيء له بعض المكان ، ثم قال :
« إنه الطريق الموصِّل إلى القصر ، ليس في ذلك أى ريب .
هيا يا صحابي ! »

وهمهم « مجاعص » يقول :
ولماذا لا ننتظر إلى الصباح ؟
— وهل تظن أن أشعة الشمس ستنفذ إلى هذا السرداب ،
تختير لك الطريق ؟ !

— ولكن ...

— ولكن خير البر عاجله ... هيا !

وانحنى « الشيخ عاد » ، فدخل ، وتبعته « مس إيقانس » ، ثم
دخلت وراءهما وأنا أجرُّ « مجاعص » من يده ... وكان أول
ما طالعنا من هذا السرداب ، رذعة صغيرة لم يستطع نور الشمعة
أن يُرىنا جوانبها . وتقدم « الشيخ عاد » ونحن خلفه يمسك
بعضنا بعضاً ، لا تتحرك إلا معاً ...

وسرنا على هذه الحال خطواتٍ ، وبغثة شعرنا باختلال
توازنا ، فتساقطنا ، بعضنا على بعض ، وإذا الطريق يغدو

زَلَقْنَا شَدِيدَ التَّحَدُّرِ . وَأَحْسَسْنَا أَنْفُسَنَا نَهْبِطُ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ ،
فِي ظِلَامِ دَامَسَ ، إِلَى حَيْثُ لَا نَعْلَمُ . . . وَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدُنَا بَلَفْظَ ،
وَعَاجَلَتْنَا الْخَفَافِيشُ الْمَذْعُورَةُ تَطِيرُ مِنْ حَوْلِنَا ، وَتَضْرِبُ بِأَجْنَحَتِهَا
وَجُوهَنَا ، فَتَعَالَى صِيَاحُنَا . . . وَمَا لَبِثْنَا أَنْ وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا
قَدْ تَرَامَيْنَا فِي شَبَكَةٍ أَوْ نَحْوِهَا ، مَرْتَفَعَةٍ عَنِ الْأَرْضِ ، فِي بَقْعَةٍ
مَكْشُوفَةٍ !

تَمَّ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي لَحْظَاتٍ ، كَأَنَّهَا وَمَضَاتُ الْبَرْقِ ، فَلَمْ نَعْرِ مِنْ
أَمْرِنَا شَيْئًا . وَلَا نَدْرِي كَيْفَ عَجَزْنَا عَنْ تَوَقُّعِ هَذِهِ السَّقْطَةِ ، وَتَلَا فِي
الْإِنْزِلَاقِ فِي ذَلِكَ الْمُنْحَدَرِ .

وَكَانَ نُورُ السَّحَرِ يَتَقَدَّمُ الْفَجْرَ ، وَيُؤْذِنُ الْوُجُودَ بِالنَّحْسَارِ اللَّيْلِ ،
فَتَبَيَّنَ لَنَا أَنَّنَا فِي شِبْهِ حَدِيقَةٍ . وَكَانَ كُلُّهُ انْجَلَى الصَّبَاحِ تَرَامَتْ
لَنَا أَغْصَانُ الشَّجَرِ ، وَحَمَلُ إِلَيْنَا النَّسِيمُ الْبَلِيلُ عِطْرَ الرِّيحَيْنِ . . .
وَتَفَحَّصَ « الشَّيْخُ عَاد » حِبَالِ الشَّبَكَةِ ، وَقَالَ :
« فَلْنَقْطَعْهَا بِالسَّكِينِ ! »

وَبَحَثْنَا عَنْ سَكِينٍ مَعْنَا ، فَلَمْ نَوْفُقْ إِلَى شَيْءٍ يَصْلُحُ لِهَذَا الْعَمَلِ .
فَقَالَ « بِجَاعِص » وَهُوَ يَجْتَهِدُ فِي فَسْحِ حَلٍّ لَهُ بَيْنَنَا :
« إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرِضَهَا بِأَسْنَانِي ! »

فقلت « مس إيفانس » :

« إذا تم ذلك أمكننا أن نقفزَ منها إلى الأرض ، في
شغير مشقة ... »

وانطلق « مجاعص » يقرض الجبال ، وما كاد يبدأ عمله ،
حتى سمعتُ « مس إيفانس » تهمس :
« انظرا إلى هذه الخيلة ... انظرا ... ألا تريان فيها
شيئاً ؟ »

فجعلت أنظر ، أنا و « الشيخ عاد » ، وهينمتُ :
« أرى عينين براقَتين ! »

وسمعنا خفيفاً خفيفاً بين الأغصان ، فقلت :
« قد يكونُ حيواناً وحشياً .. أخشى أن يهجمَ علينا ، ونحن
في محبسنا هذا ، فلا نستطيع منه الفكاك ! »

ووجدتُني أُخرج الغدّارة وأُطلق عليه من فوري رصاصة ،
ولكن مرقَ في الوقتِ عينه نصل لامعٌ من ناحية الشيء
الذي توهمته وحشاً ، فكاد النّصل يمسُّ كَتِفَ « مس
إيفانس » ، ثم ارتطم في الصخر خلفنا ، وعاد فاستقرَّ في حجرِ
« الشيخ عاد » ، ... وتداولناه في عجلةٍ ننظرُه ، فإذا هو

خُتِبَ جَرٌّ ماضٍ ذو حدين ، له مقبض من أغصان الشجر ،
ختباد لنا النظرات مصعوقين ...

وتوارت العينان وهدأت الحركة بين أغصان الخيلة . فقلت :
« ماهذه المعميات ؟ »

فأجابني الشيخ :

« أخشى أن تكون قد أصبت آدمياً ! »

وغممرنا صمتٌ مرهوب !

وأمسك : « الشيخ عاد ، بالخنجر يقطع به حبال الشبكة .

ففسح لنا فيها طريق خلاص ... »

لم تمض فترة وجيزة ، حتى كنا نحن الأربعة على الأرض .
 فسير بخطا حذرة نحو الحيلة المقصودة . وكانت طلائع الشمس
 قد بدأت تبسط علينا أشعتها ، فبدأ لنا المكان ، وكأنه من أدغال
 الوحوش . . . فدخلنا ونحن نشق لنا طريقاً بين الأشجار
 الملتفة ، والأغصان المهدلة ، ندوس الأعواد اليابسة ، والأوراق
 الذابلة ، فيسمع لها صوت مفزع في هذا المكان الصامت !
 وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام جسم مطروح ، فتقدمنا
 تنبئنه ، فإذا هو يقوم برأسه ، ويرسل لنا من مقلتيه وميضاً
 نارياً ، وسمعناه يردد :

« لا تمسوني . . لا تقرّبوني . . . إني أمقتكم ! »
 ووقعت عينه في هذه اللحظة على « مس إيقانس » ، فألفينا
 حدقتيه قد اتسعتا اتساعاً عجيباً ، ونظرة قد تركّز فيها . ثم
 اختلج جسمه بأسره ، وعلت وجهه ابتسامة ، وقال :
 « عجيب . . . عجيب . . . ! . . . أمكن هذا ؟ »

ثم هَوَى برأسه على الأعشاب ، وهو يحدّق في «مس
إيفانس ، ويُجمّجِم :

« صفاء صفاء »

وانكب « الشيخ عاد » عليه ، يتعرّف جُرْحَه ، ثم اتجه
إلينا ، وقال :

« أعطوني خرّقا وماء . . . »

فناولناه مامعنا من خرّق ، ووجدتُ وعاءَ فخاريا بالقرب
من الرجل الجريح ، فناولت « مجاعص » إياه ، وقلتُ له :
« دونك الحديقة ، فابحث لنا عن ماء فيها . . . »
فغمغم يقول :

أفي هذا المكان المهجور ماء ؟

— اذهب يا غبيّ ، أتظن أن هذا الآدميّ يستطيع أن يعيش

هو وما حوله من نبات ، دون ماء ؟

فتلكأ قليلا ، ثم أخذ الوعاء ومضى . . .

وتقدمت « مس إيفانس » من الجريح ، وقالت تخاطبُ

« الشيخ عاد » في رفق :

ماذا ترى في جُرْحِه ؟

— يلوح لي أن حالته لا تخلو من خطر ، إن الرصاصه
مرت بجانب الشدي الأيمن . .

فركت « مس إيقانس » بجوار الغريب ساهمة تفكر ، ثم
تساءلت :

« لماذا يدعوني : صفاء ؟ »

فقلت لها على الفور : .

« الرجل إما مخبول ، وإما محموم ! »

وعاد « مجاعص » بالوعاء ، مهلل الوجه ، يقول :

« عثرتُ على تبّعٍ ماؤه زلال . . . سبحان مُبدعِ
الأكوان ! »

وشرع « الشيخ عاد » يُضَمِّدُ الجرحَ ، ونحن ملتفتون
حوله . . .

أما الغريب فهو رجل عَـبِلُ الجسم ، مبسوطُ القامة ، ذو ملامح
متناسقة ، تهدل شعره على منكبيه ، واختلط في لحيته الكثرة
البياضُ بالسواد . وهو مرتدٍ ثوباً ساذجاً قصيراً مجدولاً من
ألياف الشجر . يتَمَنِّطُ بحزام ، ورأسه عاري ، وقدماه حافيتان .
وظلت « مس إيقانس » تجملُ الإناء لـ « الشيخ عاد » ، تساعده
في عمله ، ورأيتهما تُطِيلُ في الوعاءِ النظر . . . ولما استنفذ الشيخُ

حافيه من ماء ، أدنته « مس إيقانس » من عيذها تُقلبه ،
وتستوضحه بدقة . ثم ناؤلتني إياه ، وهي تقول :
« اقرأ ما هو مكتوب عليه . . . »

فقرأتُ كلمة « صفاء » منقوشة في حافتيه من الداخل في
وضوح ، فغمغمت :

« لا أدري ما الذي يعنيه بهذا . . . »

وقتُ إلى النَّبع ، فوجدته غيرَ بعيد من مكاننا ، موضعه
بين الصخور ، يفيضُ ماؤه عليها ، ثم يعود فيجتمعُ في شبه
حوض ، ومن ثمَّ ينحدر في قناةٍ تجوسُ خلالَ الحيلة . . .
وهناك على الصخر الأملس الذي ينبثقُ الماءُ من قلبه ، ويتسائلُ
على صفحته ، قرأتُ بخطِّ مُنمَّقٍ كلمة « صفاء » ،
فقلت هامساً :

« وهنا أيضاً ، »

وفيما أنا عائِدٌ ضَلَلْتُ طريقِي ، فرأيتُني بالقربِ من
الشبكة التي كانت تحتسويني . والتقي بصرى بقطعةٍ ملساءٍ في
جانب الجبل ، منقوشٍ عليها بخطِّ كبير ذلك الاسمُ السالف ،
وقد رسم تحتَه قلبٌ بجانبه زهرة . . . فنالتني حيرةٌ لا تخلو من

يضيق . وعدت إلى « الشيخ عاد ، بالإثناء ، وقد اندلق نصف ما تصب
على الأرض .

ولما فرغ « الشيخ عاد ، من تضميد جراح الغريب ،
اخترنا له مرقداً طيباً في الخيلة ، ثم مددناه عليه ، ووسدنا فم
حزمة من الحشيم .

وأردنا أن ننصرف عنه . فقالت « مس إيقانس » :
« أتركه وحيداً ؟ »

فقال « الشيخ عاد » :

« لم يكن وحيداً قبل أن نحضره ؟ »

— ولكنه جريح !

— لا خوف عليه . إنه لا يستيقظ قبل ساعة أو

أكثر ...

وأخذنا سمئنا إلى النبع ، فغسلنا وجوهنا ، ورحلنا
نهل منه حتى ارتوينا . وقرأت « مس إيقانس » كلمة « صفاء »
المنقوشة في صخرة النبع ، ولكنها لم تفتح لي حديثاً في شأنها .
وجلسنا حول الماء متباعدين في شبه حلقة ، وقد أسند بعضهم
ظهره إلى الصخور ، وبعض آخر إلى ساق الشجر .

وَأَمَّا لَكُنَّا غَاشِيَةً مِنْ بَحْمَتٍ ، وَغَلَبَ النَّعَاسُ ، الشَّيْخَ عَادَ ،
فَأُطْبِقَ جَفَنَيْهِ . أَمَا ، مَجَاعَصُ ، فَكَانَ يَغُطُّ فِي نَوْمِهِ مِنْذُ
جَلَسَ ، وَرَأَيْتُ رَأْسِي يَتَرَنَّخُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ رَحَتْ فِي عَالَمِ
الْأَحْلَامِ !

وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ ، فَأَلْفَيْتُ ، الشَّيْخَ عَادَ ، وَ « مَجَاعَصُ »
عَلَى حَالِهَا . أَمَا ، مَسْ إِيقَانَسُ ، فَلَمْ تَسْكُنْ مَوْجُودَةً ، فَقُمْتُ
مُدْفُوعًا بِعَامِلٍ خَفِيٍّ ، وَقَصَدْتُ عَلَى الْفُورِ خِمْلَةَ الْجَرِيحِ ، وَكُنْتُ
أَسِيرٌ مُتَلَصِّصًا . فَمَا إِنْ اقْتَرَبْتُ مِنَ الْمَكَانِ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتًا ،
فَوَقَفْتُ مُحْتَبَأً أَنْصَتُ . . . وَطُفْتُ بِبَصَرِي بَيْنَ الْأَغْصَانِ ،
فَرَأَيْتُ « مَسْ إِيقَانَسُ » رَاكِعَةً بِجَوَارِ الْجَرِيحِ ، وَهُوَ آخِذٌ يَدَيْهَا
يَحْمِلُ فِيهَا ، وَيَقُولُ :

« شُكْرًا لَكَ عَلَى زِيَارَتِكَ لِي بَعْدَ هَذِهِ الْغِيَةِ الطَّوِيلَةِ ! »
فَقَالَتْ :

أَأَنْتَ الْآنَ أَجْسَنُ حَالًا ؟

— إِنِّي لَا أَشْعُرُ بِمُكْرَوِهِ ، مَا دُمْتُ مَعِيَ !

— مَا دُمْتُ مَعَكَ ؟

- إن الرصاصة التي قد فُتِسِنِي بها كانت جزءاً عادلاً .
- ولكنني لم . . .

فقاطعها قائلًا :

« لقد جئت لتَقْتَصِّي مني . . . فالحمد لله ! »
ورفع يدها إلى فمه . وقبَّلَهَا قَبْلَةً طَوِيلَةً حَرَّأً ، وكانت
شفتاه ترتعشان ، وعيناه نَدِ يَتَيْنِ بالدموع . . .
ثم رأيتُه قد غاب ثانياً عن الوَعْي ، فخرجتُ من مخبئي
ودنوت من « مس إيقانس » ، فقالت :
إنه يحدثُني حديثاً يبعثُ على الدهشة . . . يزعم أني جئتُ
لأَقْتَصُّ منه !

- أما قلتُ لك إنه مخبولٌ أو محموم ؟
ولحقَ بنا « الشيخ عاد » ، فقلتُ له :
« لقد استيقظ الجريح ، ولفظَ بضعَ كلماتٍ محومة ، ثم
فَقَدَ وَاعِيَهُ كما كان من قبل . »
فجسَّ « الشيخ عاد » نبضه ، ثم قال :
« لا خوفَ عليه ، اترُكُوهُ ليرتاح . . . هيا بنا لرتادِ
الحديقة ، ونستوضحَ شيئاً من القصر . »

وخرجنا من الخيلة ، فجببنا أنحاء الحديقة ، فألفيناها قسيحة
الأرجاء ، تغمُرُها أشجارُ الفاكة ، حَمَلَةٌ بالطَّيِّبِ النَّجَنِ
من مختلف الشَّمار فأكلنا ما لذَّ لنا وطاب حتى بَلَفْنَا الشَّبَع .
ثم مرَّرتنا بأقسام من الحديقة مزروعة أصنافاً شتى من
الْخَضَرِ والبُقُول .

وانشأنينا بعد ذلك في بعض المدارج ، فَعَثَرْنَا على
كُوخ ، فدَخَلْنَاهُ ، فإذا هو مَسْكَنٌ غَايَةٌ في السَّذَاجَةِ ، به مَرَقَدٌ
مُسَوَّى من الغصون ، وغطاء مجدول من لحاء الشَّجَر ،
وَأَسْفَاطٌ يحوى بعضها أليافاً أو ما يُشَبِّهُ الألياف ، وفي
بعضها الآخر قليل من البقول والشَّارِ الجافَّة . . . هذا إلى عددٍ
ضئيل من الأواني الفَخَّارِيَّةِ ، مبعثرٍ في شتى الجوانب ، بعضه
فوق بعض .

وسمعتُ « الشيخ عاد ، يقول :

« لماذا اختارَ هذا الكوخَ لنومه ؟ أليس في القصر
حُجُرَاتٌ ؟ »

وخرجنا نَمُرُّ بجوار الشبكة . . . ووقفتُ « مس إيثانس »
أمام الصفحة المصقولة العريضة المكتوب فيها اسمُ « صفاء »
تحدِّقُ طويلاً في هذا الاسم وفيما تحته من رَّسَمِ القَلْبِ والزَّهْرَةِ .

أثم تابعت سيرها معنا. وكانت أقلنا كلاماً، وأكثرنا تفكيراً.
ولكنها كانت أشدنا اهتماماً بما يستبين لنا من معالم المكان.
وجزنا بفتجورتين تشبهان المغاور، فولجناهما،
فلم نجد بهما شيئاً يستر عى الاهتمام. ومررتنا بالثالثة، فإذا هي
ذات سقف عال، وفي ركن من أركانها مدفأة منقورة في
الصخر بها بقية من رماد، وعلى مقربة منها كتل من الخشب
المسعد للحريق...

فقال « الشيخ عاد » :

« أراهن على أن هذه المغارة مشتی له ، فهو يقضى فيها
إلى الزمهرير ! »

فاجابت « مس إيقانس » :

« ياله من شخص غريب الأطوار ! »
وقلت :

« أخشى أن نكون قد كشفنا مأوى رجل من قطاع
الطريق ، فرها رباً من يد العدالة ! »

فأجابتنى « مس إيقانس » ، وهى تنظر إلى فى عتاب :

« لا تحكم عليه يا صديق قبل أن تعرف حقيقته ! »

وبدا الظلام يتفشى المكان ، فقد آذنت الشمس بالمغيب ،

واستترت خلف القسم العالية ...
وجعلنا نفكر : أين نبيت ؟ فقال « الشيخ عاد ، :
« تستطيع مس إيقانس أن تنام في الكوخ ، فهو أليق
مكان بها ... أما أنت ومجاصص فتيتان هنا ... »
فقلت .

وأنت ؟

— إنني أفضل العراء ، وسأختار مكانى بين الخائل .
وقالت « مس إيقانس » :
« ومضيفنا ؟ أنسيت أنه جريح ؟ سأترك له الكوخ ،
وسأبحث لى عن مكان آخر ... »
فقال « الشيخ عاد » :

« كلا ، ياسيدتى ، لن يضيره أن يمكث حيث هو ...
إنه ابن الغابة ، وحليف الجبل ، وقد يؤذى الانتقال جراحه
التي لم تندمل بعد ... »

وانتصحننا بنصيحة « الشيخ عاد » فانطلقنا نهبيئاً أمكنتنا
للنوم . وبعد أن بذلت جهداً لإمكان فى معاونة « مس إيقانس »
على إعداد فراشها ، وتوفير أسباب الراحة لها ، ذهبت

بـ « مجاعص ، إلى الخائل نجمعُ الهشيمَ والأعشاب . ولما انتهيتُ
من تهيةِ المرقَد ، نظرتُ إلى « مجاعص » وقلتُ :

« مارأيُّكَ في هذا السريرِ الفاخر ؟ »

فأجابَ ، وهو يَتمَطِّي ويتشاءبُ في تصايحُ :

أحلفُ لك بعُمري إن كلَّ إنسانٍ يحسُدُنا عليه ، حتى
السلطانُ ! »

واستلقى عليه ، وراح يتقلبُ ، وهو مازال يتشاءبُ ويتمطِّي .
ثم هدأتْ حركتهُ ، فناديته ، فلم يُجِبْنِي . وبعد قليلٍ علا
شخيرُهُ ، فتركتهُ ، وخرجتُ أمامَ الساحة ، فوجدتُ
« مس إيقانس » و « الشيخ عاد » ينقلانِ إلى الجريج بعضَ
الهشيمِ ، فذهبتُ معهما ، واستطعنا أن نُعدَّ له في مكانه مرقداً
ليتنا ، مددناهُ عليه في رفقٍ واحتراسٍ ، وغطَّيناهُ بفروٍ قديمٍ
صادفناه في كوخه ، ولم نلبثُ أن تركناه نائماً !

وفي الغداةِ استيقظتُ نَشِيطاً ، فقد قطعتُ ليلتي مسترسلاً
في نومٍ شديدٍ . . . وقصدتُ من فوري حديقةَ الفاصكة .
وملأتُ سَلَتِي بأطيب السَّمار . وذهبتُ إلى الكوخ ، حيث ترقد

« مس إيفانس ، ، وعلقتُ السَّلَّةَ بِالْبَابِ ، وأخذتُ سَمْتِي إِلَى النَّبْعِ . وما كدتُ أَقْتَرِبُ مِنْهُ حَتَّى رَأَيْتُ سِتْرًا مَنْسُوجًا مِنْ الأَلْيَافِ يَتَدَلَّى مِنْ شَجَرَةٍ ، يَتَرَاءَى خَلْفَهُ إِنْسَانٌ شَبَهُ عَارِ يَغْنَتْسِلِ ، وَعَلَى قَيْدِ خُطُوءَاتِ مِنَ السِّتْرِ قَيْصُ الإنكليزية الحسنة فوقفت لحظةً أَبْتَسِمُ فِي جَذَلٍ ، وَأَنَا أَتَرَدُّ بَيْنَ إِقْدَامٍ وَإِحْجَامٍ . . . ثُمَّ عَدْتُ أَدْرَاجِي إِلَى السُّكُوحِ ، وَشَغَلْتُ نَفْسِي وَقْتًا بِإِعْدَادِ الْفَاكَةِ لَهَا .

وبعد قليلٍ أَقْبَلْتُ وَوَجْهَهَا مَا بَرَّخَ يَقْطُرُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَشَعْرُهَا السَّاجِي مَهْدَلٌ عَلَى أَكْتَافِهَا . فَمَا إِنْ كَلَحَتْني حَتَّى صَاحَتْ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّعَجُّبِ :

« أَنْتَ هُنَا ؟ »

فَقُلْتُ ، وَقَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ لَهْجَتِهَا :

أَسَاءَ كَ قُدُّومِي ؟

— كَلَا . . . كَلَا . . . غَيْرَ أَنَّ الْوَقْتَ مَبْكَرٌ ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ اسْتَيْقَظَ أَحَدٌ بَعْدَ .

— كَيْفَ أَمْضَيْتَ لَيْلَتَكَ ؟

— أَرْقَةً قَلِيلَةً ، تَهْفُو بِي الْهَوَاجِسُ ؟

— لَشَدُّ مَا يَسُوهُنِي أَنْ أَعْرِفَ ذَلِكَ !
ووقفتُ قليلاً صامتاً ، أراقبها وهي تُجَفِّفُ وَجْهَهَا . ثم
تَأْدِنِيْتُ مِنْهَا بَعْضَ الْفَاكِهِةِ ، وقلتُ :
لقد جئتُ لك بِالْفَطُورِ .

— شَكَراً يَا صَدِيقِ . . . سأختارُ له عُنُقُوداً مِنَ الْعِنَبِ .
لأنه لم يَطْعَمْ غَيْرَ الْمَاءِ مِنْذُ أَمْسٍ !
— الجريج ؟

— لقد ذهبتُ إِلَيْهِ خِيْنََ صَحْوَتُ ، فإذا به ما زال نائماً .
فتركته لم أزعجْهُ .

— أَنْتِ طَيِّبَةُ الْقَلْبِ يَا مِسْ إِيْقَانَسْ !
قلتُ ذَلِكَ فِي لَهْجَةٍ تُفْصِحُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْإِسْتِنكَارِ
وَالْتَعْجُبِ . فنظرتُ إِلَى نَظْرَةٍ فَاحِصَةٍ ، قَابَلَتْهَا بِابْتِسَامَةٍ
سَانِحَةٍ . . . وخرجتُ !

التقينا بعد ذلك جميعاً على بابِ الْمَغَارَةِ . . . كنتُ جالساً
أفكرُ ، وعن كَشْبِ مَنِي « مِسْ إِيْقَانَسْ » ، تُغْنِي فِي وَهْجِ
الشَّمْسِ بِتَصْفِيْفِ شَعْرِهَا وَتَجْفِيْفِهِ . وَ« مجاعص » مِنْهُمْ فِي قَضَمِ

كوزٍ من الدُّرَّةِ نَجَحَ في شَيْئِهِ . أما ، الشيخ عاد ، فكان في داخلِ
المغارة ، ولا أدري : ماذا كان يعملُ هناك ؟

وخرج بعد فترةٍ ، متهللَ الوجه ، يقول :
ألم ترَ البابَ المؤدِّيَ إلى السَّرْدَابِ ؟
— لم أرَ شيئاً !

— إنه على قِيدِ خُطْوَتَيْنِ من فراشك . . . تعالَ انظر .
ونَهَضْتُ معه ، فوجدتُ باباً من الحجر ، لا يُعَدُّ كثيراً
من مكان فراشي ، فقلت :

« عجيب ! كأنما صُنِعَ ليلاً في أثناءِ نومي ! »
فضحك « الشيخ عاد ، وقال :
لقد كَشَفْتُ خلفه سِرْدَاباً .

— وإلى أين يُفْضِي هذا السرداب ؟

— أكبرُ ظَنِّي أنه مُفْضِي إلى داخلِ القصر !

وجاءت « مس إيثانس » وكانت قد انتهت من تصفيفِ
شعرِها ، فَعَقَصَتْهُ بِمِهارةٍ خَفِةٍ رأسها . وتساءلت :
« ما الخبر ؟ »

فقصَّ عليها الشيخُ كَشْفَهُ الجديد ، فقالت له :

وماذا تَرَى ؟

— ندخلُ في العردابِ على الفورِ لإتمامِ الكشفِ !
ودخلنا . . . فإذا بنا في ممرٍّ رَطْبٍ ، بدأ ضيقاً ، ثم
انْبَسَطَ ، حتى أصبح ممرّاً فسيحاً تغشاه ظلمةٌ غيرُ حالكة .
ولم نسر فيه طويلاً ، حتى رأينا أمامنا درَجاً حلزونياً كأنه
درَجٌ مِثْدَنَةٌ ، فجعلنا نَصْعَدُ فيه . وكان « الشيخ عاد » يتوقفُ
بين قِنينةٍ وأخرى ليتفحصَ الجدارَ أو الدرجَ .
وأخيراً هَيَّئَ قائلًا :
« إنه منحوت في صميم الجبل . . . »
فقلتُ :

ولكن يلوح لي أنه بلا مُنتهى !
— إذا سُرِقَ به إلى السمواتِ العُلا !
وما فتئنا نَصْعَدُ ، إلى أن بلغنا غايةَ الدَّرَجِ ، وقد أخذ منا
الجهدُ كلُّ مأخذ . وألفينا أنفسنا أمامَ ثَغْرَةٍ في حِجْمِ
الأبوابِ المألوفةِ ينفُذُ منها نورُ النهار . ورأيت « مس إيقانس »
تَهَالِكُ على الجدارِ ، تمتلِئُ الوجهَ ، فأقبلتُ عليها ، وأسندتها
إلى صدري ، وأخذت أروِّحُ وجهها بمندبلي . وانتظرنا حتى

أفاقَتْ من غَشِيَتِها . ولما وَجَدَتْ رَأْسَها على صدرى ، بدا
عليها الدهش ، وقالت وهى تستعيد وَقْفَتَها :

« إني آسفة ! . . . آسفة جداً ! . . . هيا . . . فلتتابع سيرنا ! »
وَوَلَجْنَا الشُّعْرَةَ فَإِذَا نحنُ في رَذْهَةٍ فسيحة يغمُرُها النور ،
وينطلقُ فيها الجِواءُ ، يأتیان إليها من نافذَتَيْنِ مستطيلَتَيْنِ ،
ورأينا صُفْفاً من الحجر ، في كلِّ جانب من جوانب الرَذْهَةِ
صُفَّةٌ ممتدَّةٌ ، وفي وَسْطِها خِوَانٌ كبير من الحِجَرِ أيضاً .
فالتفتُ إلى رفيقِي ، وقلت :

« كأننا في قاعةٍ مَحْكَمَةٍ من محاكم القرونِ الخالية ! »
فأجاب « الشيخ عاد » :

« قد يكون صاحبُ القصرِ أَعَدَّها لِتَصْلُحَ لذلك . ألم يكن
أميراً على عشائره ؟ »

وانتحت « مس إيقانس » جانباً ، تؤدِّي بعضَ الحركاتِ
الرياضيةِ الخاصةِ بالتَّسَنُّفِ ، ثم اتجهتُ نحوَ الصُّفَّةِ ، حيثُ
تقوم خلفُها النافذتان ، فأسرعتُ أَنْظِفُها ، وأنقِ عنها طبقاتِ
الغبارِ التي كانت تَكْسُوها . فشكرتُ لى ، وجلستُ ؛ ثم أَلَقْتُ
بظهرِها إلى الحائط ، فقلتُ هامساً :

« أما زلت مُنْعَبَةً ؟ »

فأجابتنى ، وقد أسبلتُ جفنينيها :

« أشعُرُ بتعب ، ولكنه ليس بالكثير . . . »

وكان « الشيخ عاد » يحوبُ الحجرةَ ويتفحصُها ، فلم ألقِ
بالأُ إلىه ، ولم أغادرُ مكانى أمام « مس إيقانس » . . . وقفتُ
أطيلُ النظر في وجهها الهادى ، وقد غَشِيَتْهُ غَفْوَةٌ خفيفة ،
فإذا به قد عراه هُزَالٌ وشُحوبٌ لم ألاحظه من قبل . ولكن
ذلك لم يَنْلِ من وسامته ، بل لعله قد زاده إغراءً وِفْتَنَةً .
فإن هذه الصُّفْرَةَ القليلةَ التى انتَشَرَتْ على صفحته ، فاختلطتْ
بَحُمُرَتِهِ الأصلية ، أكسبته لوناً شرقياً رائعاً ، زائتته
رُوحَانِيَّةٌ ساحرة ، تنطق بها كلُّ قَسِمَةٍ من قَسِمَاتِهِ . روحَانِيَّةٌ
أضاءت خلف أجفانها المُسْبَلَةِ ، وشاعتْ تحتَ بَشَرَةٍ وجهها
النَّضْر ، فأحالتْ تلكَ الطَّلْسَةَ من وجهِ إنسانٍ مركَّبٍ من
لحم ودم وعظم ، إلى طيفٍ مؤلَّفٍ من عناصرٍ نُورَانِيَّةٍ لا تنسب
إلى المادة بشئ .

وأحسستُ يداً تُلاطِفُ كَتِفِي ، وسمعتُ « الشيخ عاد »

يقول :

« ماذا تفعل ؟ أتَحْلُمُ بالنعيمِ الموعود ؟ »

فنظرتُ إليه طويلاً ، وأنا صامت ، ثم أجبتُ في خُفوتٍ :
« بل أجلسُ بالنعيم المفقود ! »

فابتسم ابتسامةً خفيفةً ، وَضَعَطَ يَدَيَّ ، ثم اقتادني إلى
النافذة ، وهو يقول :

« انظر ! »

وانطلقتُ أتَطَّلِعُ من النافذة ، فإذا حديقةُ القصر مبسوطةٌ
تحتَ أعيننا ، على مرتفعٍ شاهق . وعلى الرَّغم من ذلك ،
استطعنا أن نلحَ شيئاً يتدحرجُ في ساحةِ الحديقةِ أمامَ
الأشجار . وظَلَلْتُ أدقُّ النظر ، فتبينت شخصاً « مجاعصاً »
في هذا الشيء يتمرَّغُ على الأرض ، كما تتمرَّغُ الدابةُ
الطَّروب . فقلت :

« إني أُمْنِحُ نصفَ عمري ، إن كان لي عُمرٌ يستحقُّ الذكر ،

لمن يُنيلني سعادةً هذا الرجل ! »

وشهدنا « مس إيثانس » تشاركنا في النظر ، وهي تبسم ،

وقد بدا عليها أنها استفادتُ أيما استفادةٍ من تلك العَفْوَةِ التي

أغفيتها . . . وقالت :

« إننا على ارتفاعٍ عظيم ! »

فقلت :

كأننا في ذِرْوَةِ هَرَمٍ « خوفو » ،
— كلما طال مكثنا في هذا المكان العجيب ، تكشّفت لنا
معالم جديدة تُورِثُ الدهشة .
ونظرْتُ إلىَّ ، ثم قالت :
أفأسفُ أنتَ لهذه المخاطرة ؟
فابتسمتُ وقلت :
« إذا كنتِ أنتِ تأسفين » ،
— إنى شديد الغبطة بما يحيط بي من عجائب . والآن هيّا
نستأنف عملنا في كشف القصر !
فتقدّمَ « الشيخُ عاد » ، وقال :
« لقد أقيتُ نظرةً على بقية القاعات ، فلم أرَ فيها جديداً ،
ولكن لا بأسُ بأنَّ « تسرّحوا نظركم فيها . . . »
ومضى أماننا ، وسرنا خلفه ، فاخترقنا بعضَ قاعاتٍ وممرّاتٍ
لا تختلفُ عما شاهدناه . وكانت كلها تربيةً ، يَدُلُّ مظهرها على
أنها لم تطأها قدمٌ منذ أعوامٍ مديدة . . . ورأينا لبعضِ الحجَرِ
مدافيناً ، وبعضِ نوافذها مغاليقَ من خشبٍ غليظٍ أو من

حَجَرٌ . ولاحظتُ على « مس إيفانس ، أنها قد لا ذتُ
بالصَّمت ، فكانت تتلفَّت حوْلها تَلَفَّت الحالم ...
ووصلنا أخيراً إلى بابٍ في نهاية الممرِّ ، فقال لنا
« الشيخُ عاد » :

« أكبر ظني أنه بابُ الخروج ! ،
وسمعنا « مس إيفانس » تنطقُ في سُهومٍ بقولها :
« لا أدري لماذا يدْعُوني : صفاء ؟ ،
فخذ قنساً فيها صامتتين ...

ثم راح « الشيخُ عاد » يعالجُ فَتَحَ الباب ، وكان من خشبٍ
غليظ . فلقيَ بعضَ الصعوبة ، فأقبلتُ عليه أساعده ، فتمكنا
من زحزحته ، وفُتِحَ مكانٌ لنا نَجُوزُ منه . فقد كان الخشبُ
متماسكاً ، مشدوداً إلى الحجر ، حتى ليكاد يكونُ معه بنياناً
واحداً ... ومررنا منه ، فأسلمنا إلى ممرٍّ ضيقٍ أظلم
والتَّوى ، وكلما توغلنا فيه أطبقتْ علينا دِياجيه واشتدَّت .

وقال « الشيخُ عاد » في صوتٍ خفيض :
« قَبَّحَنِي اللهُ ! لم أخصِرْ معي شمعاً ولا ثقاباً ! ،
وبحثتُ أنا و « مس إيفانس » عن ثقاب معنا ، فلم نجد من
شيء . فقلتُ :

« نعود من حيث أتينا ، فالطريقُ خلفنا معروف . . . »
فقال « مس إيفانس » :

بل تتقدم ، فربما أزعجنا النِّقابَ عن جديد !

— كيف يتجلى لنا في الدُّجى شيء ؟

— أَوْ تَظُنُّ أَنَّ الْمَكَانَ سَيُظِلُّ عَلَى إِظْلَامِهِ طويلاً ؟

وأمسك بعضنا ببعض ، وتقدمنا في خُطاً وئيدة ، وكان

الشيخُ رائدنا ، يتلمَّسُ الطريق ، ويلقى علينا الأوامر . . .

وسرنا . . . وسرنا . . . واختلَّ توازنُنا دَفْعَةً واحدة ،

فوقعنا يَتَشَبَّثُ كُلُّ مَنَا بِصَاحِبِهِ ، وَهَوَيْنَا مَتَدَهَوْرِينَ فِي

مُنْحَدَرٍ زَلِقٍ . وَقَبْلَ أَنْ نُفِيقَ مِنْ ذَهْشَتِنَا وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا

فِي الشَّكَةِ الصَّائِدَةِ فِي الْحَدِيقَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ تَسَاقَطْنَا عَلَى الْأَرْضِ .

وسمعنا فهمةً عاليةً وضجيجاً ، فإذا « مجاعص ، أماننا مُغْرِبٌ

فِي الضَّحِكِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

« مَا أَحْلَاكُمْ وَأَنتُمْ مُعَلِّقُونَ فِي الشَّبَكَةِ ! أَلَا تُعِيدُونَ الْكَرَّةَ ؟ »

وقمنا ونحن نَنفُضُ التُّرَابَ عَنْ ثِيَابِنَا ، وَصَرَخَ « الشَّيْخُ عَادَ »

فِي وَجْهِ « مَجَاعِصِ » ، فَأَخْرَسَهُ . . . وَمَا كَدْنَا نَسِيرُ بِضَعِ خُطَوَاتٍ .

حَتَّى التَفَتَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ ، وَغَلَبَ عَلَيْنَا جَمِيعاً ضَحْكُ مُتَوَاصِلٍ !

ثم تفرقتنا : مكث ، بجاعص ، في الساحة بجوار الشبكة ، أما
أنا والشيخ ، فقصدنا إلى النبع نستريحُ ببعض الحديث . وكانت
وجهة « مس إيقانس » الكوخ .

وبعد قليل تمللتُ في جلستي ، وتأهبتُ للقيام ، فانفردت
شفتا « الشيخ عاد » عن ابتسامه هادئة ، وقال :
حقاً لقد أبطأنا عليه !

— من تسعني ؟

فقام ، وتأبط ساعدي ، وقال :

هيا بنا ...

— إلى أين ؟

— إلى الجريح ... أتَحسبني أعني غيره ؟

* * *

وصلنا إلى هنالك ، فصادفنا « مس إيقانس » منحنية على
الجريح تساعدُه في تناول شرابٍ من وعاءٍ فخاريٍّ ، فلما
رأتنا قالت :

« لقد أعددتُ له عصيراً فاكهةً ، إنه في حاجةٍ إلى التغذية
الخفيفة ! »

فأجابها « الشيخ عاد » :

« حسناً صَنَعْتَ ! »

وكان الجريجُ يُقلبُ فِينَا بَصْرَهُ الحائرَ الحذرَ ، وهو

مَغْضَنُ الجين ، فقالت له « مس إيقانس » :

« إنهما صديقاي ، وإني مدينةٌ لهما بفضلِ الاهتداءِ إلى

هذا القصر ! »

فانبسطتُ أسارى وجهه شيئاً ، ولم يتلفظْ بحرف . ورفع

رأسه يحسبنا ، فأقبل عليه « الشيخ عاد » هاشئاً باشئاً ، وهو

يقول :

« كيف أنت الآن ؟ »

فقال في همس :

بخير !

إننا آسفون لما وَقَعَ لك . . . كان خطأ غيرَ مقصود !

فأجاب في لهجةٍ يقين ، وهو يزُمُّ شَفَتَيْهِ عَقِبَ كلِّ كلمةٍ :

« ليس ما وقع بخطأ ، إنما هو العدلُ الإلهيُّ أَتَقَبَّلُهُ راضياً

قريرَ العين ! »

ثم عاد ينهلُ من الإناء ، مُتَقَرِّبُهُ إلى شَفَتَيْهِ « مس إيقانس » .

وبعد أن ارتوى مسح برأسته فمه ، وأسند ظهره إلى كومة من
العشب ، ثم أرخى جفنيه !

وبعد لحظة تكلم بصوت خافت ، وهو ممسكٌ بيد « مس
إيفانس » ، قائلاً :

« إنني أراك الآن في ثياب العرس ، والعداري يحيطن
بك ... أراك مثلثة تفيضين حياة ونورا ... ثم أرى
الغداة صوّبت نحوك ، والرصاصه محترقة قلبك . ثم ... »
واحتبس صوته ، فلم تعد نسمعه ، وإن كانت شفتاه
ظلتا تتموجان !

ورأينا خيطين من الدموع يتهايان على خديّه !
وما هي إلا فترة قليلة حتى سكنت حركة شفّتيه ، وكانت
« مس إيفانس » تلاحق يده ، ثم نظرت إلينا تقول :

« مسكين ! »

وكان منظره حقاً يستدر الرثاء !
ولم البث أن وجدني أندفع قائلاً :

« لا زيب أنه فقد عقله ! »

ففتح عينه ، وصوب نظره إلى مُحَدِّثاً ، وقال :

« كلا ، ياسيدى ، لستُ مجنوناً ! إن المجنونَ لا يستطيعُ أن
يُمكنكَ غيرُ مُجِبِّرٍ خمسةً وعشرينَ عاماً فى هذا المكان ! ،
فقلتُ « مس إيقانس ، وقد اتَّسَعَتْ حَدَقَةُ عَيْنَيْهَا :
أَنْتَ فى هذا المكانِ منذُ رُبْعِ قرن ؟
— لم أبرحْهُ دقيقةً واحدةً طَوَّالَ هذهِ الحَقْبَةِ
فابتسمتُ ابتسامةً إشفاق ، وهَجَسْتُ :
« أليس هذا هو الجنون بعينه ؟ »
ولم أكدُ أُتِمَّ جملتى ، حتى رأيتُ الجريجَ يَشْرَبُ وقد
احتقنتُ عيناه ، فكأنهما جمرتان تتلَهَّبَانِ .
وَأَمْسَكَ بِالْإِنَاءِ الْفَارِغِ ، وَهُوَ يَصِيحُ :
« اسكُتْ ، وَإِلَّا شَجَجْتُ رَأْسَكَ بِهَذَا ! »
فهدأتُ « مس إيقانس ، من رَوْعِهِ ، ومالَ على « الشيخِ
عاد ، ينصَحُ لى بالتزام الصمت . فانتحيتُ ركناً غيرَ بعيدٍ ،
ولَبِثْتُ أَرَأَيْتُمْ ، وَأَصْنَعِي لِمَا يَتَبَادَلُونَهُ مِنْ حَدِيثٍ .
قالتُ « مس إيقانس ، للجريج :
« اصْدُقْنِي الْقَوْلَ ، مِنْ أَنْتَ ؟ »
فقال لها وقد لَطَفَ صَوْتَهُ ، وَخَفَّتْ حَدِيثُهُ ، وَتَحَيَّرَ
الدِّمْعُ فِي عَيْنَيْهِ :

صفاء ؟ أنسيت من أنا ؟

— قل بربك ، من أنت ؟ من أنت ؟

— يالك ! أنسيت يوسف الصافي ؟

— حفيد الشيخ بشير الصافي مشيد القصر ؟

— إذا بدأت تستذكر ينني !

— ولكن يوسف الصافي انتخر !

ووضح الإعياء بغتة على وجه الجريح ، فاعنى « الشيخ عاد »

على قلبه يتسمع ، ثم قال :

« يجب أن يرتاح ! »

ورأينا « يوسف » قد تراخى جفناه ، وانساب به الكرى .

فهمس « الشيخ عاد » في أذن « مس إيفانس » ثم تركا الرجل ،

وجاءا إلى . وذهبنا إلى النبع ، ونحن سكوت ، وجلسنا

شبه دائرة ، نحدق في كلمة « صفاء » المنقوشة في الصخر

الأملس ، تتدفق عليها مياه الينبوع ، فتدعها تختلج

حروفها ، كأن لها قلباً حياً ينبض !

وبعد حين قال « الشيخ عاد » :

« إن السرَّ يُورثك أن ينجلي ... »

فقلتُ :

كيف ؟

— إذا كان الرجلُ صادقاً في زعمه ، فإن قصةَ انتحاره التي
نقلها إلينا الرواة ، إشاعةٌ مُتخلِّقة !

فقلتُ :

أَو تَظُنُّ أنه صادقٌ فيما زعم ؟
— أميل إلى تصديقه .

وَبَرَقَتْ عينا « مس إيقانس » ، وقالت :
« أما أنا فأعتقد أنه غيرُ كاذب »

فطأطأت رأسي ، وعبستُ في الأرض بعود يابس ، وقلت :
« قد يكونُ صادقاً ! ... »

وطالت جَلَسَتُنَا : فقال « الشيخ عاد » :
« إني لا أرى مجاعصاً ! »

فقلتُ :

لقد صحتَ به صيحةٌ أوقعتُ في قلبه الرُّعب .
— لقد أساء الأدب .

- ولكن لا تنس أن موقفنا كان مُثيراً للضحك
- ما كنتُ أتوقعُ لنا هذا الحادثَ مطلقاً .
- غريب أن ينتهيَ مطافُنَا في القصر قريباً من فَوْهَةِ

الدخول !

- ليتنا كنا على عِلْمٍ بذلك في أولِ الأمر !
- ونهض « الشيخ عاد » يبحث عن « مجاعص » وبقيتُ و « مس إيفانس » وحدنا في المكان . وبدأنا نسمعُ صوتَ « الشيخ عاد » يُنادي « مجاعص » ، فتُرَدَّدُ جوانبُ البقعة صداه في رنينٍ سحريٍّ ، وكنت جالساً القُرْفُصَاءَ صامتاً وعيناي تحدّقانِ أمامي تحديقاً شاربداً ، وقد شعرتُ بموجة من الأسى تطفئ على نفسي .
- إذ استعدتُ في خاطري ما جرى بيني وبين الجريج من جدلٍ لم يخلُ من حِدَّةٍ وعُنف .

وبعد فترة طويلة من الصمت ، شعرت بيد « مس إيفانس » تَلَا طِفُّ يَدِي ، وتقول :

« أمستاء أنت ؟ »

ولم ألتفتَ إليها ، وظَلَلْتُ على حالي أَحَدُ قُ أُمَامِي ، وقلت :

مستاءٌ ممن ؟

— منه !

— كلا . . . اطمَئِنِّ من هذه الناحية . وهل أُعيرُ اهتمامي
شخصاً مخبولاً ؟

— لماذا يصطبغ حديثك في شأنه دائماً بهذه اللهجة القاسية ؟
— وأنت . . . لماذا تُظَلِّلِينَه دائماً بهذا العطف الغريب ؟
— ألا يستحقُّ منا هذا العطف ، بعد أن كدنا نقتله ؟
— لو لم نبادره بهذه الضربة ، لقضى علينا جميعاً . إنه
من قُطَاعِ الطريق ، وقد اتحلَّ شخصيةً من شخصيات
الأساطير ، يُخَفِّي تحتها شخصيته الزائفة . إنه يُمَثِّلُ دوره في
إتقان ، وقد قَدَّرَ على أن يستهوي بك ، فيُخَضِّعَكَ لسلطانه
السَّحَرِيَّ !

— ما هذا ؟ ألا تخجلُ من قولك ؟

— إني لا أخجل من قول الحق ، وإسداء النصيح !

— بل إنك لتُفَارُ منه . . .

فجابهتها ، وحدثتُ فيها بشدة ، كأنما يتطأروُ من عَيْنِي
الشَّرَرُ ، وقلت :

« أنا أغار منه ؟ . . . أنا ؟ »

ولم أزد على هذا ، ولم تجب ، مس إيفانس ، بحرف -
وبقينا على هذه الحال بلا كلام ، يحدّق كلُّ منا في صاحبه .
وأخيراً ألفتُ ، مس إيفانس ، تسبيل جفنيها ، وتقول
لي في لهجة محزونة :

« إني آسفة ! أرجو أن تنسى ما وجهته إليك من قول ... »
فخففت رأسي ، وأنا أجمجم :
« وأنا أيضاً شديد الأسف على ما بدّرَ مني . أرجو أن
تسامحيني ! »

وأقبل « الشيخ عاد » ، فرآنا على هذه الحال ، فادرك كلَّ شيء ،
ولم يكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً .
ثم قال :

« إن المخبول مجاعص غير موجود ! »

فقلت :

كيف ؟

— بحثُ عنه في كلِّ مكان ، فلم أعر عليه .
— قد يكون مختبئاً في موضع خفيّ هرباً منا ...
فقال « الشيخ عاد » :

«ربما كان الأمر كذلك»

• • •

وقضينا النهارَ بأكمله نبحث عن «مجامعص» فلم نجدْ له أثراً
هاشتدَّ قلقنا عليه . . . وكانت «مس إيقانس» «والشيخ عاد»
يعودانِ الجريجَ في الحين بعد الحين، أما أنا فقد فضلتُ
ألا أزوره وألا أبدأ حديثاً في شأنه. ولكنني علمتُ من الشيخ
أنه مازال يهنّدي باسم «صفاء»، ويروي نُسفاً متقطعة مختلفة
تصفُ مضرَّعها في حفلة عُرسها . . .

ولما هجمتُ حنّادسُ الليل، وسار كلُّ منا إلى نخذعه،
اعترائني همٌّ ثقيل، جثمَّ على صدري، همٌّ قد اختلطَ بخوفٍ
وجُبْن. ودخلتُ المغارةَ في خطأ مترددة، ثم أقبلتُ أبحثُ
مدققاً: «هناك بابٌ آخر أو مكانٌ مستتر خلفَ الجدران؟ وأحكمتُ
إغلاقَ البابِ المفضي إلى سردابِ القصر، وأردتُ أن أُرْدَّ بابَ
المغارةِ أيضاً، ولكنني لم أفعل، إذ وجدتُ في تركه مفتوحاً
بعضَ الطمأنينة، فقد احتاجُ إلى المعونة، فانادى بعضُ الرفاق،
فيسمَعُ صوتي، ويخففُ لنجدي . . . ولكن يَمْنُ أخاف؟
ولماذا أطلبُ العون؟ ذلك ما لم أكن أملكُ الجوابَ عنه!

وأشعلت المدفأة لأستثير بضوئها ، واستدفئ بحرارتها .
واستلقيت على الهشيم ، وقد كدعمت رأسي يدي ، وانطلقت
أحدق في سقف المغارة الكثير الثتوء ، ونار المدفأة تتلاعب
عليه في أشكالٍ بشيعة . ورحت أفكر في هذه العلاقة العجيبة التي
نشأت بين دمس إيفانس ، والجريج ، وجعلت أجمع أمام عيني
ما وقع لي معها اليوم من مشاحنة ، وأستحضر اتهامها إياي
بالغيرة من الجريج .

وتكألت على الهعوم ، وأحسست كأن يداً تأخذ بمخنقي ...
لماذا قبلت أن آتي معها لكشف هذا القصر المشنوم ؟
لقد بت أكرهه كما أكره صاحبه . . . لم لا أتركه وأعود
من حيث أتيت ؟ . . . و دمس إيفانس ، ؟ . . . أفأدعها بين
خراعي ذلك الجريج المخبول ؟

وخيّل إليّ أني أسمع صوتاً يعوي في مكانٍ سحيق ،
وأرهفت أذنيّ أصغي في انتباه . . . أهنالك ذئبٌ تحيط بنا ؟
لست أدري !

ونهضت أغلق باب المغارة ، وعدت إلى الهشيم فارتيت
عليه . . . وتعالى العواء ثانية . أعواءٌ ذئب هو ، أم صوتٌ

آدمي؟ لم يتبين لي حتى الآن شيء . . . إنه ليس صادراً من بعيد ، كما توهمت بادىء بدء ، فهل هو صوت حبيس خلف الجدران المحيطة بي؟

وتذكرت غشبة مجاعص ، فاختلج جسمي اختلاجة مفاجئة . لم لا أذهب فأدعو الشيخ عاذ ، ؟ وجلست على فراشي أحرق في باب المغارة ، واستمهل نفسي وقتاً ، وأرهفت أذني كل الإرهاف ، ومكثت على هذه الحال مدة ليست بالقصيرة أسمع . . . قد يكون هذا العواء صدًى لصوت نفسي العلية المضطربة . إن أعصابي ثائرة ، وإني في حاجة إلى شجاعة نفسية كبيرة لضبطها . . . فألقيت بجسمي على الفراش ، وأرخيت أجفاني ، وأرغمت نفسي على النوم ، كما أرغمتها كذلك على التفكير في شؤون أخرى ، بعيدة كل البعد عما كنت أجيل خاطري فيه .

وكدت أنجح في مسعاي ، وشعرت بطلائع الشَّعاس الأولى تغزو رأسي . . . وانتبهت مذعوراً ، وأنا أتلفت حولي ، وكلّيت أذني صاغية : أيكون ما سمعته اللحظة حُلماً أم حقيقة واقعة؟ ورأيتني أقفز من فراشي ، وأترك المغارة عدوّاً ، آخذاً سمنى

إلى مَبِيتِ الشيخ عاد ، وما إن واثبته ، حتى جعلت
أهزه ، وأقول :

« استيقظ ! استيقظ ! »

فرفع الشيخ جفنيه مرعوباً ، وقال :
ماذا ؟

— سمعت صوت استغاثة ...

— استغاثة نجاعص ؟

— لا أدري على وجه التحقيق ، يَخِيلُ إلى أنه حَبِيسٌ في

مكان مجهول .

— حَبِيسٌ ؟ ومن حبسه ؟

— من يدري ؟ قد يكون في قبضة شيطان عنيد ...

فنظر إلى مَلِيًّا ، وهو يتفحصني ، وقال :

أستيقظ أنت ؟

— تمامَ اليقظة . . . يجب أن نغادرَ هذا الموطن الممقوت ،

يجب أن نبارحه من الغد . وإن استطعنا الليلة أن نتقل ، كان
أوفقَ وأمثل .

— هَدْيٌ من رَوْعِكَ . . . أراك مضطرباً !

وناولني قليلا من الماء ، فشربته ، وقلت على الاثر :
وهي . . . يجب أن تُنْجِسِيهَا مِنْهُ . إنها تحت تأثير مغناطيسي
شديد !

— ولكنك تحدثني في أمر « مجاعص » ، وتذكر لي
أصوات استغاثة !

— لا أدري ! لا أدري !

— قم بنا إلى المغارة ، وسأُتَبِّينُ الأمر بنفسي ، فإذا كان
ما سمعته أصواتاً حَقِيقَةً ، بدأنا نبحث عن « مجاعص » فوراً .
وقت معه إلى المغارة ، وجلسنا على الهشيم ننصت في
انتباه ، وأمامنا نارُ المِدْفَاقِ ، وقد أخذتْ جَذْوَتَهَا تُسْرِعُ إِلَيْهَا
الخنودُ فَتُحَسُّ الظلمة والبرودة تشيعانِ حولنا رويداً . . .
وما هي إلا أن عاد الصوتُ ثانية . . . سمعته واضحاً هذه
المرة ، فأكاد يبلغُ أذنَ « الشيخ عاد » حتى استوى في
وقفته ، وقال :

« إنه مجاعص . . . هو بعينه ! »

ثم خَطِفَ من الموقِدِ جَذْوَاً طرفه ملتهب ، وقال :
« اتبعني ! »

ورأيته يتجه نحوَ البابِ المفضي إلى السَّرْدَابِ ، الذي دخلنا
منه إلى القصرِ هذا الصُّباحَ ، فسِرْتُ خَلْفَهُ ، وأوغَلْتُنا في
السردابِ ، وكان منظرُهُ على ضوءِ ذلك المِشْعَلِ الخافتِ مرهوباً
مُفَزَّعاً ، وسرنا والشيخ يتسَمَّعُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وترادفَ
الصوتِ ، ولكن في ضَعْفٍ وتراخٍ ، فتبينت لي فيه استغاثة
مكروبةٌ لا هفة . . . وقال الشيخ عاد ، :

« لقد أحسنت صنْعاً إذ أيقظتني . . . إن المسكين في
مَازِقِ حَرَجٍ ! »

ورأيتُه يَصْعَدُ الدَّرَجَ في بُطءٍ شديدٍ ، وهو ما زال يَنْصَتُ
ثم إذا به قد وقف دَفْعَةً واحدةً ، وأخذ يتراجِعُ إلى الوراءِ ،
وصاح وعيناه تحدَّقان حيثُ موطئُ قَدَمَيْهِ :

« انظر ! »

فتقدمتُ خُطْوَةً ، ونظرتُ باحتراسٍ ، فوجدتُ أمامي
جَنُوءَةً دَامِسَةً كأنها فَوْهَةٌ بَرٌّ ، فقلتُ وأنا أرتعدُ :

لم تكن موجودة في الصُّباحِ

— من حُسْنِ حِظِّنا . .

— وكيف وُجِدَتْ ؟

— هذا ما لا أعرفه على وجه اليقين.. غير أنه لا بد أن
الدرجتين اللتين كانتا تُغطَّيانها ، لم تكونا من صميم الدَّرَجِ
المحفور ، بل كانتا منفصلتين عنه . أما كيف سَقَطَتَا : « مجاعص »
فذلك سرٌّ من أسرار هذا القصر !
— أهو هُنَاك ؟

ولم أكْمِلْ جملي ، حتى تنأهَى إلينا صوتُ المسكينِ «
وكانه آتٍ من مكانٍ قصيٍّ .. فصاح « الشيخ عاد ، يُطمئنِّثه »
ثم التفتَ إليَّ ، وقال :

علىَّ بالحبل !

— الحبل ؟

— لأتدلىَّ به إلى حيثُ هَوَى ..

— لا أذكر أين وضعناه ؟ ..

— ولا أنا أيضاً ... قد نكون نسيناهُ في خارج القصر
ولكن يوجدُ في كوخ « يوسف الصّافي » ، — أعني حجرةَ
« مس إيقانس » — شيءٌ يشبه الحبل ، يصلحُ لهذه الغاية .

— أو تستطيع الحصولَ عليه في هذه الساعة ؟

— يجب أن نحاولَ المستحيل ، لإنقاذ روح إنسانية
تستغيث .. هيا !

— ماذا ؟

— اذهب إلى الكوخ ، ورجنى بما طلبت .

فنظرتُ إلى « الشيخ عاد » متحيراً ، فوجدته يرنو إلى « بنظرة
ثابتة » فأطعته ، وخرجت أتجسسُ طريقى فى الظلام المدهم .
وأخيراً وصلتُ إلى الكوخ ، فوقفت أمام الباب متردداً .
ثم طرقتُ بعض طرقات . فأجابت « مس إيفانس » وقد بان
« الرعبُ فى صوتها :

من ؟ .. من يدقُّ الباب هكذا ؟

— أنا .. أنا يا « مس إيفانس » !

— أنت ؟ ... ماذا جاء بك فى هذه الساعة ؟

— افتحى ! ... أمرٌ خطير ...

وشعرتُ بها تستوى على فراشها ، ثم انقضت هنيهة لم
تتحرك فى أثنائها ولم تتكلم ، فهل خامرها شكٌ فى طويئتى ؟
وهل ظنت أنى أحتالُ عليها لغرض فى نفسى ؟ فصحت ثائراً :

افتحى ! افتحى ! إنه يُحتضر !

وأحسستُ بها تثبُّ عن السرير ، وفى طريقة عينِ وجدتها

بالباب أمامى . وقالت فى جَزَع :

أحقاً أنه يُخْتَضَر ؟

وفهمت على الفور من لُحْجَتِها مَنْ تَغْنى . وأدركت هي
مِنْ تَرَائِخِيَّ في الإجابة أنها تَعَجَّلَتْ في إزاحة النقاب عن
عواطفها وقلتُ في تمهّل :

« إن الشيخ عاد أرسلني لأُحْضِرَ له حَبْلاً . . . »

وأوضحتُ لها بإيجاز قصة الدرجتين اللتين هَوَّتا به « مجاعص »
في مَسْنَقَطِ « يشبه البئر » وكانت تُصْنِى إلى في انتباه ، ونور
الهِلالِ الغاربِ يُلقى بضوئه المتخاذلِ عليها ، فيزيدُ في فتنتها ،
وهي تَخْطُرُ في ملابسها الساذجة ، وخصائلُ شجرِها الطليقِ
تُرْسَلُ على كتفها ووقفتُ قليلاً لا أتكلّم ، أناجى بعينيَّ
ذلك السحرَ الخلاب !

وسمعتها تقول :

« تقدم ، وادخل ، ولنَبْحَثُ عن الحيل . »

ودخلنا ، فلم نجد حبلنا القديم ، وثبت لنا أننا تركناه في
خارجِ القصرِ في المفارقةِ الأخيرة . فجَمَعْنَا ما في الكوخِ من
ألياف تصلح لأن يُصْنَعَ منها حبل ، وفهينا بها إلى مكان .
« الشيخ عاد ، ، فهِمَسَ قائلاً :

« أخشى أن يكونَ قد فاتَ الوقتُ ! »

فقلتُ فزعاً :

كيف ؟

— لقد صرختُ أناذيره مراتٍ كثيرةً ، فلم يَرِجِعْ إلىَّ

من جواب !

فغمغمْتُ : « مس إيقانس » :

« المسكين ! »

وقلتُ :

« قد يكونُ مُغمى عليه ! »

فأجابني « الشيخ عاد » ، في حُسرة

« قد يكون ذلك ! »

وأقبلنا نحن الثلاثة على أشاتِ الألياف نَفْتِلُها ونَجْعَلُها

حَبَلاً متيناً . وكنا نعملُ بهمةٍ ونحن صامتون ، والكونُ

حولنا ساكنٌ في رهبةٍ كثيفةٍ ، كأن العالمَ كله يشاركنا في

جزعنا على ذلك الرفيق المنكوب !

وطال بنا الوقت ، فلم نَنبَسْ ، وأنمنا عملنا . وشدَّ

« الشيخ عاد » ، الحبلَ إلى ظهره ، وجعل يَتَدَلَّى في الفَوَهةِ ،

وَبَقِيتُ وَدَسَ إِيقَانَسُ ، قَابِضَيْنِ عَلَى الْحَبْلِ ، تُرْنِخِيهِ شَيْئاً
فَشَيْئاً مُتَرَيِّشَيْنِ حَذِرَيْنِ مِنْ كُلِّ طَارِيءٍ وَكَانَ الْجَذْعُ
الْمَلْتَهُبُ فِي يَدِ الشَّيْخِ ، يَسْتَنِيرُ بِهِ . وَأَخِيرَ شَعْرُنَا بِهِ يَصِلُ إِلَى
الْقَاعِ ، وَنَسْمَعُنَاهُ يَقُولُ :

« كُنِّي أ »

وَمَضَى وَقْتُ وَأَنَا وَدَسَ إِيقَانَسُ ، مُتَحَدِّقٌ فِي تِلْكَ
الْفَجْزَةِ الدَّاجِيَةِ ، تَهْبُّ عَلَيْنَا مِنْهَا رِيحٌ رَطْبَةٌ كَرِيهَةٌ ،
وَرَأَيْنَا الشُّعْلَةَ فِي قَاعِ الْبُتْرِ كَأَنَّهَا بَصِيصٌ ثِقَابٌ . . . وَكُنَّا
نَتَّبَعُهَا بِأَعْيُنِنَا فِي حَرَكَاتِهَا الضَّئِيلَةِ ، وَهِيَ تَرُوحُ وَتَجِيءُ ، ثُمَّ
اسْتَقَرَّتْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ .

وَشَعَرْتُ يَدَيَّ تَرْتَجِفَانِ ، وَهُمَا قَابِضَتَانِ عَلَى الْحَافَةِ . . وَلَمْ
تَكُنْ « دَسَ إِيقَانَسُ » بِأَقْلَ مِنْهُ إِهْتِيَاجاً . وَلَمَّا طَالَ صَمْتُ
« الشَّيْخِ عَادَ » هَمْسَتْ « دَسَ إِيقَانَسُ » فِي أُذُنِي قَائِلَةً :

أُنْسَادِيهِ ؟

— الْأَفْضَلُ أَنْ نَتْرَكُهُ حَتَّى يَسْتَكْمَلَ فَخْصَهُ .

وَمَضَى الْوَقْتُ ، وَتَحَرَّكَتِ الشُّعْلَةُ فِي اتِّجَاهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ . ثُمَّ
نَسْمَعُنَا صَوْتَ « الشَّيْخِ عَادَ » يَقُولُ :

« اجذبِ ثوبي ! »

فأخذنا نجذبُ الحبلَ ، ورأينا الشُعْلَةَ تتصاعدُ في تباطؤٍ ،
وأحسّتْ يديَّ تتخاذلان ، نِخَفْتُ العاقبة ، وضاعفتُ من عزيمتي
حتى ظهر « الشيخ عاد » وتعلّقَ بالفَوْهَةَ متحفّزاً للخروج .
فَوَهَنْتُ قوتي كلّ الوَهْنِ ، وجلستُ مُسْتَنِدّاً ظهري إلى
الحائط ، أستمع إلى دقاتِ قلبي السَّراع . . .

وخرج « الشيخ عاد » وأخذ ينفضُ الترابَ عن ثيابه ، وكان
وجهه متجهماً ، وعيناه محتقتين ، ولم تطاوعه شفتاه على أن
ينبِّسَ بحرفٍ ما ، ففطِنَّا إلى كلِّ شيء . . .

ووجدت « مس إيفانس » قد أخفتْ وجهها بين يديها ،
وانفجرتْ باكياً فاحتبستُ أنفاسي ، وشعرتُ بالنار
تأجّج في رأسي ، فصحتُ كالجنون :

« فلنترك هذا القصرَ المشنوم ! يجب أن نتركه على الفور ! »
واندفعتُ أمزّقُ صداري ، فأقبل على « الشيخ عاد »
وأمسك يديّ ، وقال :

« أهكذا تكونُ مواقفُ الرجال ! »

وانتقلنا إلى المغارة ، أعنى حجرتي ، وجلسنا على مقربةٍ من
المدفأة ، وقد أفاض كلُّ منا في صمّيته المضطرب .

ثم نمنا حيثُ جلسنا ، ولم يُغَيَّرْ أحد منا الوَضْعَ الذي كان عليه .

وقضينا اليومُ التالى فى عملٍ فاجع ينقث فى النفسِ سمومَ الغمِّ والاسى . فأخرجنا جثةٌ « مجاعص » ، وقت أنا ، والشيخ عاد ، بغسلها وتكفينها على حَسَبِ الشريعة ، ثم صلَّينا عليها ، وبعدئذ دفناها فى دَعَلٍ من أدغال الحديقة . أما « مس إيقانس » فقد لَزِمَتْ حجرَها ، حتى انتهينا من عملنا ، فجاءت إلى قَبْرِهِ ، وثرثرت عليه طاقةً من الزَّهَرِ !

لا أدري كيف احتملت أعصابى هذه المشاهدَ المرهوبة ، فلن أنسى ما حِسِيتُ مَنَظَرَ الجِثَّةِ ، وأنا أُجذِبُها إلى الفوهة ، فتصعد على مَهَلٍّ ، وتُطِيلُ على برأسها المهشم ، والدمُ التَّربُّ المُنْعَقِدُ يلوِّثُ ملاححها المتقلِّصة . . . ولا أنسى ما عانِيتُ من المشقَّات فى سبيل إخراجها ، لقد كنتُ أحتضنها وأنا أشدُّها شداً ، فأجد رأسها يترنَّح ، ثم يستريحُ على كَتِفِى !

هذه صورة لا تزال محقورة فى أعماقِ مُخَيَّلَتِى ، تترامى لى بدقايقها حيناً بعد حين !

قضينا يوماً أقتمً ، يغشاهُ سكونٌ ثقيلٌ ، لم تتبادل فيه

الكلماتِ إِلَّا لَمَّا ... كُلُّ مَنْ مُنْطَوٍّ عَلَى نَفْسِهِ يَفْكُرُ فِي
هَذَا الْحَادِثِ ، وَكَأَنَّهُ يَفْكُرُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ فِي مَصِيرِهِ هُوَ
أَيْضاً ...

وَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ، أَعْدَدْتُ فِرَاشِي بِجَوَارِ فِرَاشِ الشَّيْخِ عَادٍ
فَلَمْ أَعِدْ أَحْتَمِلِ النَّوْمَ فِي الْغَارِ وَحْدِي ... وَمِنْ حُسْنِ حَظِّي
أَنِّي رَحْتُ فِي نَوْمٍ طَوِيلٍ الْمَدَى ، عَوَّضْتُ بِهِ كَثِيرًا مِنْ
مَتَاعِي وَآلَامِي .

وَفِي الصَّبَاحِ قُلْتُ لـ الشَّيْخِ عَادٍ ، وَكُنْتُ جَالِسًا وَإِيَّاهُ
بِجَوَارِ النَّبْعِ :
أَيُّهُ بَرَّ هَاتِهِ الَّتِي تَرَدَّى فِيهَا الْمَسْكِينُ بِجَاعِصٍ
بِرَحْمَةِ اللَّهِ !

— لَمْ يَكُنْ مَضْرَعُهُ فِي بَرٍّ ، إِنَّمَا هُوَ مَكَانٌ فَسِيحٌ لَهُ
أَعْرَفُ أَيْنَ يَبْدَأُ وَلَا أَيْنَ يَنْتَهِي ... عَثَرْتُ فِيهِ عَلَى
بَقَايَا عِظَامٍ .

— عِظَامٌ ؟

— أَجَلْ ، عِظَامُ بَشَرِيَّةٍ نَجَّسَتْهَا

— أمثوى قتلة أشرار هو ؟

— . . . كلما طالت إقامتنا في هذا القصر ، ازدادت

أسرارُه تعقيداً و تعميةً !

ومرت أماننا دمس إيقانس ، تحملُ عصيرَ الفاكهة للجريح !

فحيتنا بابتسامةٍ خفيفة ، فأجبناها برفعِ اليدِ إلى الرأس .

ثم استأثرَ بنا صمتٌ طويل . . .

ووقعت عيني على اسم « صفاء » المحفورِ على صخرة النّبع ،

وهو يرّتعشُ تحتَ الماء ، فقلتُ لجليسى :

« أما زالَ يدعوها صفاء ؟ »

فرفع « الشيخ عاد » رأسه ، وقال :

كلا !

— ولم !

— إن وطأة الجنى قد خفت عن ذى قبل .

— إذأ لقد كان يهندي . . .

— يلوح لى أن كلَّ ما قاله لم يكن هديانا ، فالحنى لم تُطْلَقْ

لسانته با كاذيب ولا بأوهام ، وإن كانت قد خلطت في رأسه

المشاهد ، ومزجت بين الخيال والحقيقة ، فترامت له دمس

إيقانس ، كأنها « صفاء » ، ذاتها تبثُّ ثانياً .

— ماذا تَعْنِي بذلك ؟

— لقد بدأ الآنَ يعتقد أن « مس إيفانس » و « صفاء »
شخصان متغايران .

— أَيْكونُ بينَ كليهما تشابهٌ ؟

— أُرَجِّحُ أن « مس إيفانس » صورةٌ ناطقة لـ « صفاء » .
تلك التي أَحَبَّها فيما مضى . . .
وعاودنا الصمتُ .

رأينا « مس إيفانس » راجعةً تَتَّجِهَ صَوْبَنَا ، وجاءت
فجلست إلينا ، وقالت :

لقد رَوَى لي الساعةَ شيئاً من قصَّةِ غرامه !

— أهُنَاكَ اختلافٌ بينَ ما رواه ، وبين ما نعرفه من هذه
القِصَّةِ ؟

— اختلافٌ قليلٌ في التفاصيل . أما القِصَّةُ في جوهرها
فهي كما عرفناها من قبلُ .

فالتفت إلى « الشيخ عاد » ، وقال :

إذا فهو « يوسف الصافي » ، بعينه ، وإلا فكيف اتفقت
روايته والروايةُ التي يتناقلها الناسُ عنه ؟

ثقلت وأنا أداعبُ الرمل :

« وكيف تنفسُ إذا قصة انتحاره ؟ »

فقلت « مس إيفانس » :

إن وجوده ينفِها .. وقد سخرَ منها حين قصصتها عليه .

— وماذا قال إذا ؟

فأخذت « مس إيفانس » تُصلِحُ خصالَ شعرها السَّبَطِ

الْمَتَمَوِّج ... ثم قالت :

« لقد روى لي كيف أن أبا حبيته رفض أن يُزوَّجَه

بمِياها ، وآثر أن يزَّوجها غيره . فاعتزم أن يقضى على نفسه

وعلى حبيته في وقتٍ واحد . وكاشفها بالأمر ، فرفضت

مغتسِبة . واختار ليلة زفافها إلى غيره موعداً لإنفاذ عزمه .

وجاء الحفلة مُتَنَكِّراً ، ودخلَ عليها في منصَّتها ، فوجدها

واقفةً بين صُويَّجاتها ، فأطلق عليها رصاصة من غدارته ،

فسقطت على الأرض من ساعتها ... »

وسكنت « مس إيفانس » وعيوننا متعلقةً بها . ولما طالا

حمتها ، قلت :

وانتحاره ؟

— لقد قال لي ، وقد أسبلَ جفنيه السَّديْنِ بالدموع :
« ولما أردت أن أرفع الغدَّارةَ إلى رأسي لأُطْلِقَهَا ، لم تطاوعني
يدي ، وفي لمحِ البصر توأريت . . . كيف ؟ . . .
لا أدري ! ، ثم انخرطَ في البكاء ، فأشفقتُ عليه من الكلام ،
ورجوت منه أن يهدأ .

وانصرفت أيامٌ آخر ، وكنت ما أزالُ آخذاً بخطتي السلبية
نحو الجريج ، فلم أذهبَ لزيارته ، وتحاشيتُ التحدث في أمره
مع « مس إيقانس » ، إلا إذا اقتضت ذلك الضرورةُ القُضوي .
واعتراني انقباض ملازم ، فلا أذكر أن شفيتُ قد تحركنا
يا بئسامة ، ولا انبسطت أسارى مرةً واحدة في إشراق .
فكنتُ أقضي اليوم ساهما مطرقاً ، أقطعُ الساحةَ جيئةً وذهاباً .
فإذا مَلَّلتُ السَّيرَ في هذه الساحة ، دخلت في الحديقةِ أجوسُ
خلالَ نَمَائِلِهَا وأدغالِهَا . وكثيراً ما لبثتُ وقتاً أمامَ قبر
« مجاعص » ، أفكر فيه ، وأستعيدُ بالذكري ما مرَّ بنا من
الحوادث معه !

وكانت « مس إيقانس » تمرُّ بي ، وأنا في الساحةِ أقطعُهَا
مُخْطَوَاتِي الثَّابِتةَ المملولة ، فتَنظُرُ إلى بعينَيْهَا الصافيتين ، ثم

نُبعت إلى بابتسامتها الخفيفة ، ابتسامة يكسوها الشجنُ ويخالطها التحسُّر ، فأقبلها كما يتقبل الفقير المعدم الصدقة بعد صبر وحرمان وقدِمتْ على مرةً وأنا في الساحة أحدى في كلمة صفاء . المحفورة في الحجر بخط كبير . . . فربَّتتْ كتفى ، وقالتْ وهى تنظر إلى يديها :

« لن تطول إقامتنا في هذا الوطن ا ،

فحدقتْ فيها ، وقلتْ مهتاجاً :

أحقاً ؟ ومتى اعتزمت الرحيل ؟

— بعد بضعة أيام ، ريثما يسترد الجريح قواه .

وسكنتْ ، وسكتُ أنا أيضاً . . . وما فتشتْ هى تنظر إلى

يديها ، تتأملهما تأملاً طويلاً . ثم قالت ، وقد تغيَّر صوتها :

أشعر بأنى مسئولة عن كلِّ ما حلَّ بكم من مصائب وآلام ؟

— كيف ؟ لقد جئنا بمحض اختيارنا . . .

— لولم أحضُر إلى الفندق ، لما كان من هذا شئ .

— كلُّ شئ رهنُ الأحوالِ والأقدار . . . ثقي بذلك

كل الثقة .

— لقد سببتُ لكم متاعبَ كنتم فى غنى عنها .

— الحق يا « مس إيفانس » أنه لولا مصرع « مجاعص »
لما أسفت على شيء مما نالني من جهنم . ولكن أمثال هذه
المغامرة لا تمر بسلام ، فهي تخلف وراءها ذكرى فاجعة .
— لم أكن أَرْضَى أن تكون المصيبة في سواي ، خلال
هذه المغامرة الجنونية .

فقلت في تلهف :

« أمتأسفة أنتِ على حضورك ؟ »

فَنظَرْتُ إلى كلمة « صفاء » أمامها على الحائط ، وصمتت
فترة ، ثم أجابت :

« كن على يقين أنه لن يطول أمدُ إقامتك هنا ! »

وَسَارَتْ بِخُطَا خَفَافٍ ، وَغَابَ فِي مُعَاطَفِ الْحَدِيقَةِ شَبَحُهَا .

وتلاحقت الأيام . . .

وبينما كنت مرة في الساحة أذرعها بخطواتي التي يتوضح
فيها المللُ والسآمة ، إذ رأيت « يوسف الصافي » يخرج من
الحديقة متوكئاً على ذراع « الشيخ عاد » تسير بجانبه « مس
إيفانس » . . . وكان « يوسف » يخطو متمسكاً أشدَّ التمسك ،

وقد هزل جسمه ، وشعب وجهه ، فزال شيء كثير من
معالم خشونته .

والفيته يتقدم نحوى ، تلتدسح على فيه ابتسامة وديعة ،
فوجدتُ نفسي أتقدمُ نحوه . ولما التقينا مددت له يدي ،
فأطبقَ عليها يديته ، وضغطها في كثير من التلطف ، وقد
انبسطت ابتسامته ، وبرقت عيناه بنشرة هودقة ووفاء ، وقال
مداءباً في صوتٍ لئِن النبرات :
« أهلاً ومهلاً بقاتلي ! »

فهمست قائلاً :

لم يكنْ يقعُ بيالنا أن « يوسف الصافي » يسكنُ قصره ...
كنا نظنّ ...

— كنتم تظنون أن هناك وحشاً أو قاطعَ طريقٍ يريد
اغتيالكم ... لم أحسنْ ضيافتكم ... اعذروني !
وسرنا حتى النّبع ، فرغبَ « يوسف » أن يستريحَ ، فجلسنا
حولَ الماء .

يا لله ! بون شاسع بين « يوسف الصافي » الذي أراه الساعة
أمامي ، ذلك الذي يفيضُ رقةً ووداعةً ، وبين ذلك الرجلِ
الذي تلقاني من أيام كنّمرٍ وحشٍ يتحفّرُ لافتراسي !

ووقعت عيناي على « مس إيفانس ، وقد ظلت تنظر إلى
أناملها ، ووجهها مكسو بامتقاع خفيف . فطأطأت رأسي ،
وقد شاعت على وجهي ابتسامة هادئة كابتسامة المهزوم وقد
بدأ يستسلم لهزيمته ، ويستلذ أناملها .

وطرق سمعي صوت « الشيخ عاد ، يقول لـ « يوسف ، :
« ألم يحسن الوقت لنعلم منك القصة بأكملها ؟
فقال « يوسف ، وهو يداعب لحيته بأنامله مبتسما :
« إذا أذنتم لي رويستها لكم الساعة ! »
فقال « الشيخ عاد ، :
« كلئنا آذان صاغية . . . »

° ° °

فقال « يوسف ، :
« أتم تعلمون كيف دخلت على صفاء في حفل عرسها ،
وكيف أضيفتها بغدارتي ، فصرعتها . . . »
وتأمل « يوسف ، قليلا ، وهو ينظر فيما أمامه نظرات تائه
شريد . ثم أرخى جفنيه قليلا ، وتابع قوله :
« ولما أردت رفع الغدارة إلى صدري ، لم تطاوعني يداي .

لماذا؟ لا أدري وفي خطفة البرق تواريت ،
وجعلت أعدو ، وأنا لا أعرف لي وجهة ، أعدو وأعدو بلا
ترقب ، فهل كان يتأثرني أحد ؟ وهل صاح بي أحد ؟
لا علم لي بشئ لم أكن أرى قبالي إلا طيفها ملقى
على الأرض ، والدم يتفجر من صدرها ، وعيناها مفتوحتان
تنظران إلى في دهشة وعجب ، تسألاني : لم لم أتم الشطر
الآخر مما انفقنا عليه ؟

وكان السكون حولى في صمت مرّوع ، فليس في مسمعي
إلا أنينها المتقطع الضعيف يا لله ! ساعات وساعات قضيتها
وأنا أعدو كالوحش النفور المشخن بالجراح ، يطلب له مخبأ
يقيه عين الصائد !

واستلقيت على الأرض بغتة ، فاقد الوعي . ولما فتحت
عيني وجدت نفسي في بقعة قاحلة ، أشبه بالصحراء ، يُخيم
فيها السكون ، وتطبق عليها غياهب السواد جلست
أفكر طويلا ، ثم انفجرت أبكى وأشهى ، ثم أصرخ من
صميم قلبي أطلب من الناس أن يقبضوا على يسوموني سوء
العذاب .

ولما انتهت تلك الأزيمة ، قمت أجسُرُ رجلى واليأسُ يعششُ
فى نفسى ، وتأنيب الضمير يمزق قلبى شرَّ ممزق . . . سرت
على غير هدى ، وقد أزمعتُ أن أقدمَ نفسى لرجال الشرطة ،
وأخلصَ ضميرى من آلامه الشداد .

وما زلت أسير ، والعمران مستخف عنى ، لا أرى له من
أثر ، والصحراء تنبسط أمامى لا أعرف لها نهاية . . . ولاح
ضوءُ الفجر فى عرض الأفق ، فتريثتُ طويلاً أجيل فيه
النمظر ، وصححت الشمسُ تسطع بنورها القوى ، فسرحتُ
بصرى فيما حولى ، فلم أجد إلا زبالاً مبسوطة وحجارة مبعثرة ،
وتاللاً قائمةً هنا وهناك . . . وبدأت أتعرف أين يقع مكانى
من الوادى ، فعلمته على وجه التقريب .

وتصورَ لى فى تلك اللحظة أنى أسمع صوتها ، فقفزتُ
أطلب الخلاص ، وظللتُ أجرى ، ولا أجسر على الالتفات
خلفى ، حتى جعيت ، وانقطعت أنفاسى ، فارتميت على الأرض
مختنقاً خائر القوى . . .

وترامت الأيام ، وأنا أهِيمُ فى شِعب هذه البقاع المهجورة ،
مسلوب الفكر ، موزع الإرادة ، لا أدري ماذا أفعل ؟ فتارة

أجدني مدفوعاً بعامل قوى ، لا قبَلَ لي بدفعه ، لا قنصرى ،
حياتي بأية وسيلة ، وطوراً يملككني جُبن غريب ، لأتبرهن
بالخوف من كل شيء : من أشخاص أتوهم قلوبهم
يريدون القبض على ، من التلال التي كانت تحيط بي كأنهم اسجون
مطابقة ضيقة ، من الصخور التي كنت أختبئ لها آلات قتل
وإهلاك مختلفة الأشكال تتجههم لي . . . كنت أخاف من كل
شيء ، حتى من نفسي ، فكان يرتسم في خاطري أن شيئاً
يتهم جثمانى ، وسينسلخ عني ، في يده غدار في المنتودة ،
يصوبها إلى قلبي .

وعندما يخيم الليل ، تراءى لي « صفاء » خيطيبيتي ، وهي
تنظر إلى في دهشة وحيرة ، بتينها الشاخصتين ، تسألني :
لماذا لم أتم الشطر الآخر بما اتفقنا عليه ؟ فأقضي ليلتي
مسهداً ، لا يستقر بي قرار ، أفتش عن مخبأ يُنجيني من
نظراتها . . ومن أين ذلك لي ، وعيونها دائماً أمامي ، ثملا حظني
من حينها أتلقت ؟

واستأنفت سيري ثانياً .. وتخيرت لوجهتي ناحية الشمال ،
ناحية الشمال دائماً !

وكنْتُ أَقَاتُ بِالْأَسْرِ ، وَالْبُذُورُ ، وَأَرْتَوِي مِنَ الْمَنَاقِعِ الَّتِي
كَانَ يَتَجَمَّعُ فِيهَا الْمَاءُ ، وَإِذَا لَحَتْ قَرْيَةً مِنْ بَعِيدٍ ،
ابْتَعَدْتُ عَنْهَا ، حَتَّى تَهْرُبَ عَنِّي عَيْنِي !
وَكُرَّتِ الْيَامُ . . .

وَصَادَنِي فِي الطَّرِيقِ بَرَكَةٌ مَاءٍ شَهَدْتُ فِيهَا وَجْهِي ،
فَكَدْتُ أَصْعَقُ مِنْ هَوْلٍ مَا وَضَحَ لِي : وَجْهُ رَجُلٍ هَرِيمٍ
تَتَعَرَّجُ فِيهِ التَّجَاعِيدُ ، لَهُ حُلِيَّةٌ كَشْتَةٌ ، وَرَأْسٌ قَدْ غُزِرَ
شَعْرُهُ وَاسْتَطَالَ وَكَتَبَ عَلَيْهِ الشَّيْبُ . . . لَقَدْ اسْتَحَالَ وَجْهُ
«يُوسُفَ الصَّافِي» سَجْنَةً مِنْ سَجَنِ الدَّرَاوِشِ ، مِمَّنْ نَقَرُوا عَنْهُمْ
فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ . . . وَمَكَثْتُ وَقْتًا أَحَدِّقُ فِي وَجْهِهِ الْمُتَخَايَلِ
عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ ، ثُمَّ انْقَلَبْتُ أَضْمَكُ طَوِيلًا !

وَبَدَأْتُ أَتَرَدَّدُ عَلَى بَعْضِ الْقُرَى ، أَطْلُبُ الْكَتَفَافَ مِنَ
الرِّزْقِ ، فَلَا يَكَادُ النَّاسُ يَتَجَمَّعُونَ حَوْلِي ، حَتَّى تَبْلُغَ بِي ثَوْرَةُ
النَّفْسِ إِلَى الشَّتْمِ وَالسَّبَابِ ، وَأَفِرُّ ضَارِبًا فِي فِجَاجِ الْأَرْضِ . . .
وَقَدْ أَسْأَلُ شَخْصًا أَنْ يُنْذِرَ لِي قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ ، فَإِذَا مَا أَتَى
بِهِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ شَرِّ رَأْيٍ ، وَلَوِيتُ عَنْهُ وَجْهِي ، وَتَرَكْتُهُ
يَقْلُبُ فِي نَظَرٍ حَائِرٍ ، وَهُوَ يَغْمِغُمُ فِي تَحَسُّرٍ :

مَجْنُونٌ ! . . . مَجْنُونٌ ! . . .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَامِلَةِ الشَّاذَّةِ الَّتِي لَقِيتُ النَّاسَ بِهَا ،
 كَانُوا يَغْمُرُونَنِي بِإِشْفَاقِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ ، إِذْ حَسِبُونِي وَلِيًّا مِنْ
 أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، أَوْ مَجْنُونًا تَاعَسًا يَجِبُ لَهُ الرَّسَاءُ !
 وَكُنْتُ أَتَخَيَّرُ الْأَمَكْنَةَ الْمُنْعَزِلَةَ ، لِأَقْضِيَ وَقْتًا أَتَسَاءَلُ
 وَأَفْكَرُ . . . وَلَمْ يُعْذِرْ لِرُّغْبِ مَكَانٍ مِنْ قَلْبِي ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرَ
 إِلَى جَرِيمَةِ الْقَتْلِ الَّتِي ارْتَكَبْتُهَا نَظْرَةً هَنَادَّةً . وَأَصْبَحْتُ
 تَتَرَامَى لِي « صَفَاءٌ » وَهِيَ مُسَبَّلَةٌ الْأَجْفَانِ ، يَحْمِلُ وَجْهَهَا
 طَابَعَ الشُّطْفِ وَالْوَدَاعَةُ !

وَتَمَكَّنَ مِنِّي إِثَارُ الرَّحْدَةِ ، وَالِاسْتِغْرَاقُ فِي التَّأْمُلِ . أَلَسْنَا
 كُلُّنَا مُسَيَّرِينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، كُلُّ شَيْءٍ يَسِيرُ وَفْقَ الْأَقْدَارِ ، فَهِيَ
 الَّتِي تَحْكُمُ إِرَادَتَنَا . . . مَا نَحْنُ إِلَّا يَدُهَا الَّتِي تَضْرِبُ ، أَوْ عَلَى
 الْأَصْحِ صَدْرُهَا الَّذِي يَتَلَقَّى الْضَّرَبَاتِ !

وَكُنْتُ دَائِمًا أُسِيرُ نَحْوَ الشُّمَالِ . وَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْ بَلَدَةٍ
 « بَعْنَتَاب » تَذَكَّرْتُ أَنَّ لَنَا قَبْصَرًا مَجْهُولًا فِي تِلْكَ الْجِهَةِ ، فَامْتَلَأَتْ
 نَفْسِي غَبْطَةً ، وَمَا زِلْتُ أَقْتَنِشُ عَنْهُ جَاهِدًا ، حَتَّى تَعْرِفْتُ
 عَلَيْهِ بَعْدَ لَائِي ، وَاتَّخَذْتُ عَلَى الْفُورِ طَرِيقِي إِلَيْهِ .
 وَهَآنَذَا كَمَا تَرَوْنَنِي فِيهِ !

فقلت « مس إيفانس » وعينها رانية « إلى يوسف » :
وهل بقيت فيه حتى اليوم لم تبرحه ؟
— لم أبرحه قط ، ولن أبرحه ما حييت ، لقد أقسمت
على ذلك ، وسأبره بقسمي ...

— وكيف كانت حياتك في هذا المكان المنعزل ؟
— عشت هذه الأعوام الخمسة والعشرين قرير العين
بوحدي ، خالياً بنفسى ، أناجى شجوني ، وأتأمل الطبيعة حولي .
فإذا نالني هم أو أصابني ضيق ، لجأت إلى صكواقي متقرباً إلى
ربّي ، فمسرّعاً ما يُعَاوِدني سَفَائِي المنشُود !
فقلت :

« هذا حسن ، ولكنه على أيّة حال نفى مؤبداً ،

فأجاب :

« أتعدّ هذا نفياً ؟ ... ألا إني أعدّه الخلاص من حياة

زائفة ! »

فقلت « مس إيفانس » في نشوة :

« أنت الرجل الوحيد الذي فهم سرّ هذا الوجود ... »

وسنكتسنا جميعاً ، وأذاً لنا سيكون شائل . . .

عشنا مع « يوسف الصافي » أياماً أخر عيشة راضية هائلة
خالصة من المفاجآت .

كانت صحة « يوسف » تتحسن يوماً بعد يوم ، وأصبح هادئ
الطبع ، دمث الخلق . وقد بدأت علاقته به ، توشحبت بيني
وبينه الثقة الثمرا ، وطابت له عيشته ، وساغ له
حديثه . واستطعت في هذه الأيام التالية أن أنعم بتلك الحياة
الفطرية الساذجة التي يحبهاها .

أما علاقة « يوسف » بـ « مس إيفانس » فكانت علاقة احترام
وودٍّ مشبعة بماطفة دافئة تسئم عنها في بعض الأحيان
ومهنات عيذه أو خلجات وجهه . . . ولم يعد يسميها
« صفاء » كما كان يفعل وهو محوم ، بل كان يتحاشى دائماً أن يسبق
لسانه بذكر هذا الاسم أمامنا .

فأما « مس إيفانس » فقد لحقها تغيرٌ جديد ، فلزمت
الصمت ، إلا فيما تقضى به الضرورة الحافزة . وكانت تسمع
في شغف شديد لما يصف به « يوسف الصافي » منهج حياته

في هذا المكان ، وكيف قضى الأعوام الطَّوَال حبيساً بين هذه الجدران الشائعة ، أو بالأحرى طليقاً بين أحضان الطبيعة . فإذا ما انتهى من حديثه ، اتبذت ركناً بعيداً ، وجلست تخنّس ، وقد وَضَحَ على وجهها إشراقٌ عجيب !

ويذنباً كنت ذاتَ يوم جالساً إلى « الشيخ عاد » عند النبع ، تبادل بعض الكلمات التافهة ، وعقولنا شاردة في ميادين شتى ، إذ أقبلت علينا « مس إيفانس » فرغنا رأينا إليها ، فإذا هي تقول في احتياج ، ونظراتها تنطق بعزمٍ وطيد :
« أصبحت لا أطيق المُكث هنا أكثر مما مكثت ! »

فقلت على الفور :

« ماذا ؟ هل أزمعت السفر ! »

فقلت في لهجتها السابقة :

« إن مهمتنا قد انتهت . . . ألم تُكشِفِ القصرَ ، ونعرف سرَّه الخفي ؟ فلايَّ غرض نبقى بعد ؟ إن هذه الأسوار العالية ترهق أعصابي بمنظرها الموحش . . . أشعر بضيق شديد . . . »

وظهر « يوسف الصافي » يتوكأ على عصاه ، ودنا منا وعلى فيه ابتسامة رقيقة ، وقال :

« ماذا ؟ أراكم تتجادلون . . . ففيمَ هذا ؟ »
فقلت على الأثر :

« لقد اعتزمتُ » مس إيفانس ، الرحيل . . .
فواجهها « يوسف ، بنظرة استفسار ودهش ، وقال :
« لاشك أنك تمرّ حين يا سيدتي ! »
فخفَضْتُ من بصرها ، وقالتُ في صوتٍ خافت :
« أكنتَ تظنُّ ، يا صديقي ، أننا سنقيمُ هنا إلى الأبد ؟ »
فقال « يوسف » :

« كلا . . . أنا أعلم بحاجتكم إلى حياة الخضر ، ولكني لم
يخض عليكم من الأيام هنا إلا النزر اليسير . . . لا ريب أن هذا
المكان العابس قد بدأ يضايقكم ! »
فهيمتُ « مس إيفانس » أن تتكلم ، ولكنها عادت فأطبقتُ
شفَتَيها ، وأسبلت جفَنَيَّهَا . . .

وأطرق « الشيخ عاد » وراح يخطّ بعصاه على الأرض بعضَ
الرسوم الساذجة ، وقال لـ « يوسف » :
« لقد بدأنا ، يا صديقي ، نستشعر ثَقُلَ ضيافتنا عليك ! »
فصاح « يوسف » وعيناه تلمعان :

« أيجوز لك أن تتفوه بذلك أماى يا شيخ عاد ؟ »

فقال الشيخ مبتسماً :

« لو كان الأمر مقصوراً علينا ، نحن الشرقيين ، لما وجدنا
يأساً فى إطالة أمد الضيافة . ولكن هذه السيدة . . . إنها
لا تستطيع بعقليتها الغريبة أن تفهم أسلوب الضيافة كما
نفهمه نحن . . . »

فالتفت « يوسف » إلى « مس إيفانس » وقال لها فى حرارة :
« وإذا طالبت منك فى رجاء واستعطاف أن تطيل أمد
البقاء معى ، فهل ترفضين ؟ »

فصمت « مس إيفانس » وقتاً ، ثم هينمت وعينها تسبح
فيما أمامها :

« وددت لو استطعت . . . ولكن . . . »

ثم عادت إلى صمتها القلق .

وشاركناها جميعاً فى الصمت ، فلم تنفرج شفاها عن حرف .
وكان « الشيخ عاد » لا يزال يخط على الأرض رسومه الساذجة .
وبعد حين ، رفع رأسه ، وقال لـ « يوسف » :

« ما قولك ، يا سيد يوسف ، فى أننى جائع ؟ »

ثم نظر إلى « مس إيفانس » وقال :
« وأنت ، يا سيدتى ، ألا توافقينى على هذا القول ؟ »
فابتسمت ابتسامة خفيفة ، وقالت :
« إذا حضر شئ من الطعام ، فلن أتأخرَ عن مشاركتكم
فيه ! »
فاستبان على وجه « يوسف » إشراقة عابرة . وقال لها :
« إذا هيّا . . . لقد أعددتُ لكم اليومَ طعاماً صنعَ على
نحور جديد ! »

وأخيراً آن يوم الرحيل . . .
فنهضنا من فراشنا مبكرين ، وحزمتنا الأمتعة ، وتزودنا بما
يكفينا من المسئونة . .
ثم قمنا إلى قبر « مجاعص » فقرأنا الفاتحة ، وثرنا الزهر
ورافقنا « يوسف الصافى » فاخترقنا سرايب القصر ودروبه ،
والصمت الرازح يخيظ بنا ، حتى وصلنا إلى باب الخروج ،
حيث الشجرة التى دخلنا منها .
وهنا رغبنا إلى « يوسف » فى أن يرجع ، فتمست مرايم

الوداع في عبارات رقيقة . وعجبت كيف جاء توديع مس
المقانس ، لسا كن القصر فائراً على خير ما كنت أنتظر !
واقترقنا ..

وسرنا في الطريق الذي جئنا منه ، وكنا نلتفت خائفين
بين فترة وأخرى ، فنلح « يوسف الصافي » واقفاً أمام مدخل
القصر يراقبنا ويلوح لنا بيده . نخيل إلينا — ونحن نراه في موقفه
هذا ، وهو بملابسه وهيئته الفطرية وسطح ذلك المصكان
السحري — أنه رجل من أهل الكهف خرج يستجلى العالم
بعد نوم مئات من الأعوام ...

وسرنا . . . وسرنا . . .

والصمت دائماً يلازمنا ، ثم بدأت و « الشيخ عاد ، تبادل
بعض الكلمات ، فإذا بحديثنا تافه سخيف . أما « مس إيفانس »
فأستأثر بها الوجوم المكفهر ، لا تبدو لنا بحديث ، ولا تشارك
معنا في نقاش . . . وأقلقني حالتها ، وأسرت رأيي لرفيقي ،
فلم يُعرِ كلامي أى اهتمام .

وواصلنا سَيرنا بضع ساعات ، ثم اخترنا مكاناً نستَجِمُ
فيه . . . ورأيت « مس إيفانس » تخرج من صمتها ، فقالت
وعيونها تلتمع بشعاع حائر مضطرب :

« ما أتفه الحياة يقضيها الإنسان في عزلة نائية ! لا أدري
كيف تحمل أعصاب المرء مثل هذا السجن القاسى ؟ »
خَدَّقْتُ في وجهها متعجباً ، ولم أنطق . . .

أما الشيخ فراح يدايع سُبحَتَه ، ويتفحص حَبَّاتِها .

ثم قال :

« إن الأمور نسبية في هذا الوجود . . . فإعتبره أحدنا
تافهاً يعتبره الآخرُ مجداً من الأبحاد ، وآيةً في كتابِ
البطولة . . . »

فقلت :

« والحقيقة ؟ . . . أين هي إذا ؟ »

فقال :

« صدقيني ، ياسيدتي . . . إن الحقيقة ضائعةٌ في هذا
الوجود ! »

فقلتُ على الأثر :

« اسمح لي ، يا صديقي ، أن أصارحك بأن هذه الأقوال من
مغالطاتِ الفلسفة . . . » الحقيقة ، هي أن يحيا الإنسانُ
في هذه الدنيا وفقَ قوانينها الطبيعية . . . فهل العزلة ، والنفارُ
من الناس ، وإيثارُ سجنِ ناء عن المجتمع ، يصح أن يعدَّ
من الأمور الطبيعية ؟ »

فأسرعت « مس إيفانس » تقولُ في حماسة :

« إنني أسمى مثلَ هذه العزلة مرضاً اجتماعياً . . . لكل امرئ »

في الحياة رسالةٌ يجبُ أن يؤديها لبني جنسه ، فإذا نكَّصَ على
عقبَيْه ، عُدَّ ذلك فراراً من الميدان
فقلتُ في حماسة لا تقبلُ عن حماسِها :
« هذا الكلامُ هو عينُ العقل ! »

فابتسم « الشيخ عاد » ابتسامته الهادئة ، وأخذَ سُبْحَتَه ،
وطَفِقَ يَشْمُهَا . ثم قال :

« ليس لي اعتراضٌ على هذا القول في مُجْمَلِهِ . ولكن
لَا تَنْسُوا أن لكل امرئٍ حقاً في أن يفسرَ قوانينَ الطبيعة على
حَسَبِ مَنْطِقِهِ ومثلاً بِسَاتِ حَيَاتِهِ »

ولبثنا يومين كاملين في مَعَاظِفِ الطريق ولاحظت
أن « مس إيقانس » ماتستيقظ من نومها في مَطْلَعِ الصبح ،
حتى تخرجَ من الخيمة — أو ما اصطاحنا على تسميته خَيْمَةً —
وَتَقْضِي وقتاً غيرَ قصيرٍ تطيلُ النظرَ إلى اللجنة التي يقوم فيها
قصرنا المسحور . . . فأراقبها خائسةً وأنا متعجبٌ من أمرها .
بيد أني لم أراجعها في هذا الأمر بتصریح أو تليح .

وقت مرة مع « الشيخ عاد » ، نبحت عن وقودٍ لإنضاج
عَدَاتِنَا ، وما كان أشدَّ دهشتنا إذ رأينا أربعَ بَغَالٍ تَسْرَحُ

في الجبل ، تَقَتَّات بأعشابه اليابسة ، فاقترَبنا منها ولم نجد صعوبة
في طلبها واقتيادها .

وصرختُ مشيراً إلى بغلَتَيْنِ منها :

« إنهما البغلَتان اللتان تركناهما أثناء قدومنا ، ما في ذلك
رَيْب . . . »

فأخذ « الشيخ عاد » يربّت ظهرَيهما ويتفحّصُهما ، ثم قال :

يجوز !

— المشابهة بينهما وبين بغلَتَيْنا واضحة ، لا تحتاج إلى دليل .
انظرْ إليهما ، أليستَا محجَّلَتَيْنِ ؟

— صحيح ، هما محجَّلَتَان . . . ولكن ليس هذا دليلاً
قاطعاً . . . لو كان المرحوم « مجاعص » يبيننا ، لأنقذنا من هذه
الحَيْرَةِ بالخبرِ اليقين !

. . . واخترنا البغلَتَيْنِ ، لحاجتنا إليهما في الركوب ، إذ كان
نشاطنا في السير مترجّلين قد أدركه الوهن والفتور .

وأشعلنا النار ، وبدأنا — أنا والشيخ — نُهيّ طعامنا . .
وبقينا صامتَيْن لحظة . ثم قلت لـ « الشيخ عاد » :

أتظنُّ أن شخصَيْن قد يتشابهان مشابهةً تامةً ، حتى ليختلطَ
على العين الفاحصة أمرهما ، فلا تستطيع التفريقَ بينهما ؟

— مؤكّد !

— إذا اختلطَ على العين ذلك ، فهل يختلط على القلب
أيضاً ؟

— أفصح عمّا تريد ...

— لنفرض أنك أحببت فتاة ، ثم فرقتَ بينكما شيحون
الحياة ، وبعد انصرام عشرة أعوام مثلاً لقيتَ فتاةً
أخرى تُشابه الأولى مشابةً تامّةً ، فهل تشعر لها بمثل الحبِّ
الذي كنتَ تشعر به للأولى ؟

فأطرق الشيخ قليلاً ، ثم قال :

من العسير أن نضع لذلك قانوناً عاماً لا يتخلّف ... فلنكل
امرئٍ مزاجٍ خاص ، وشعور مستقل ، يختلف قليلاً أو كثيراً
عن مزاج غيره وشعوره ...

— أوكد لك أن الناس كلهم مزاج واحد وشعور واحد .
إن طيّعتنّا البشرية تسير وفق قانون واحد .

— وما هو هذا القانون ؟

— هو أن القلب لا يخطئ خطئاً العين ! فعواطفك لا

تنجذب إلى فتاةٍ لمجرد أنها تشابه من أحببتها في سالفِ حياتك !
ورأينا « مس إيفانس » آتيةً إلينا ، فأنهمكنا في إعداد الطعام
وقد غيّرنا مجرى الحديث . . .

وفي اليوم الثالث صحتُ من نعاسي ، واجتمعت به الشيخ
عاد ، لتناول الفطور ، فلم أجد « مس إيفانس » فسألته عنها
فلم يجبني . . . بل اقتصر على ابتسامةٍ هادئةٍ مديدة ، فيها معنى
الاستسلام والاستخفافِ بكلِّ شيء . فلم أفهم ما يعنيه ،
فسألته :

« أتناولتُ فطورها منفردة ؟ »

فناولتني بضعَ تينّاتٍ حافّةٍ ، وقال :

« ألم تكن تشوّق لها هذا الأمر ؟ »

— أيّ أمرٍ تعني ؟

— لقد ذهبت . . .

— ذهبت ! . . . إلى أين ؟

اجتذبتني من يدي ، وخطونا بضعَ خطوات ، ثم وقف

وهو ينظر في اتجاه الناحية القائم فيها القصر ، وأشار إليها
وهو يقول :

« هناك ... ألم تفهم ؟ »

ووقفتُ جَزِعاً ، وقد فطنتُ إلى ما يَغْنِيهِ .

ثم رجَعْنَا إلى مكاننا ، وتابعنا أكلنا صامتَيْن !

أحدث مؤلفات
محمود نيمور

أبو الهول يطير

مشاهدات وخواطر يسجلها سائح في العالم الجديد

سلوى في مهب الريح

قصة تبسط حياة فتاة لعبت بها ضروب من تصارييف القدر

عطر ودخان

فصول طريفة في نقد الحياة والمجتمع

(طبعة ثانية جديدة مزينة)

مكتوب على الجبين

(طبعة ثالثة جديدة)

فرعون الصغير

(طبعة ثالثة جديدة)

كليوباتره فى خان الخليلى

قصة الصراع الدائم بين عالم الحقيقة وعالم المثال

حواء الخالدة

قصة المرأة منذ الازل وقصتها الى الابد

شفاه غليظة

مجموعة من أقاصيص مصرية

بنت الشيطان

قصة الخير والشر فى طبيعة البشر

فن القصص

فصول جامعة لدقائق الفن القصصى

(طبعة ثانية مزيّدة)

To: www.al-mostafa.com